حملة الشام الأولى والثانية

١٨٣١ - ١٨٣٩

للبكباشى

عبد الرحمن زكى

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٨

حملة الشام الأولى والثانية

١٨٣١ – ١٨٣٩

للبكباشى

عبد الرحمن زكى

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٨



مقدمة

لا يتسع المجال لكتابة مقدمة فى فضل التاريخ الحربى المصرى على التربية القومية ، فقد أهملت دراسته إهمالا شائنا ، ولم تنسج فصوله بعد باللغة العربية .

ولولا بضعة أسطر فى كتب التاريخ المصرى العام عن فتوح محمد على فى بلاد المشرق الوسيط ، لما نالت هذه الصفحات النواصع من تاريخنا القومى أية عناية — رغما عن أنها كانت موضوع بحث ودراسة الكثيرين من المؤرخين الأوروبيين ، آخرهم الجنرال فيجان الذى وضع كتابين عريضين فى فتوح محمد على البرية والبحرية ، منذ اثنى عشر عاما .

وأخيرا واتت الفرصة الذهبية — وهى الاحتفاء بمرور مائة عام على انقضاء البطل ابراهيم باشا — أب الجيش وصديق رجاله — فكانت أن اهتمت رئاسة الجيش المصرى والجمعية الملكية الدراسات التاريخية ، بتوجيه ضباط الجيش الى الكتابة فى موضوع حروب ابراهيم وبحثها بحثا فنيا عسكريا ، على ضوء ما تعلموه فى معاهد الحرب .

ولقد حاولنا أن نتجنب الطريقة الجافة فى كتابة التاريخ الحربى بالاقتصار على وصف المعارك ، وسير الجنود ، وذكر أعداد القتلى والجرحى وما اليها ، أو المغالاة فى وصف الانتصارات بأسلوب أخاذ ، بعيدين عن روح النقد السليم ، لكننا تناولنا الموضوع فى آفاقه الواسعة ، معنيين بالأفق السياسى . أفليست الحرب متممة لأعمال السياسة والسياسيين كما قال كلوسويتز وغيره ، وأوضحنا دوافع محمد على الحقيقية للحرب الشامية ، معتمدين على الوثائق التاريخية أو الخطابات

المتبادلة أو التصريحات الرسميــة ، وتناولنا المناحى الاقتصادية التى أحاطت بمصر والموارد المــالية ، التى بفضلها حافظ محمد على على ملكه وكرامته ، وموارده البشرية من رجال هيأهم قادة الجيش للقتال ، فضلا عن قوة التنظيم والإدارة التى اتصف بها رجلان من طراز محمــد على وابراهيم ، ثم عرجنا على وصف الجيشين المتقاتلين بعدما انتهينــا من وصف الأحوال المحيطة بالدولتين ، ولم نهمــل وصف طبيعــة الأراضى التى قامت عليها المعارك ، فالأرض تسيطر على شكل العملية التى يتبعها القائد لاستحواذه على النصر .

وحاولنا — قدر استطاعتنا — أن نزوّد الموضوع بالخارطات الضرورية التى تبين ملامح المعارك ، كما أثبتنا فى نهايته ثبتا بالمراجع التى أفدنا منها .

ونسأل الله أن نكون موفقين فى بسط هذا الموضوع ، كيما نساهم بلبنة متواضعة فى تاريخ مصر الحربى ، وهى أمنيــة سوف تتحقق بإذن الله بفضل جلالة المليك المعظم — الفاروق — القائد الأعلى حفظه الله .

محتـــويات البحث

(٧) هدنة مسلحة بين حربين (١٨٣٣ — ١٨٣٩) :

اتفاقية كوتاهية — الإدارة المصرية فى الولايات — ثورة فلسطين — ثورة الدروز فى حوران — الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

(٨) معركة نزيب (الجولة الخامسة) :

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ — الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية — الجيش المصرى فى معركة نزيب — الحوادث الممهدة لمعركة نزيب — معركة نزيب — أزمة دقيقة — تحليل معركة نزيب ونقدها .

(٩) خاتمة النصر (الجولة الأخيرة) :

خطة ابراهيم فى آسيا الصغرى — موقف الجيش المصرى فى آخر يوليو — أوربا ضد محمد على — اتفاقية لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ — الاعتداء على الشام وتهديد الاسكندرية — العودة الى الوطن .

ابراهيم القائد .

مراجع الموضوع .

سياسة محمد على العسكرية

لم تك القوة ، فى نهج محمـد على ، إلا وسـيلة لا غاية . لم تك إلا آلة العيش الكريم ، والحيـاة الحرة . فقـد كان بطبعه وطبيعته كارها لسـفك الدماء ، مؤثرا للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه .

وفى هذا المعنى يقول رفاعه الطهطاوى عن حروب محمد على إنها "لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدّى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود" .

كان قبالة محمـد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطلع بأفقه الوسيع إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمـالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولابدّ أن يجرى فيها الدم الجديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فاترة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إخماد ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجد ، واليمن . ثم فتح السـودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضـدّ اليونانيين فى ثورتهم ، وانتصر ابنـه إبراهيم عليهم فى عدّة معارك ، وفقـد أسطوله فى سبيل مرضاة السـلطان . ولولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانيـة . وأخضع محمد على جزيرة كريت وما حولها من الجزائر الصغرى (١) .

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل نلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسى بوالكمت :

---

(١) محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير . من سلسلة أعلام الاسلام .

„ لقد وضعت يدى على كل شىء ، ولكن لكى أجعل كل شىء مثمرا ، والمسألة مسألة إنتـاج ، وإذا لم أقم به أنا ، فمن يقوم به غيرى ... أين الذى كان يقـدم الأموال اللازمة ، ويشير بالخطط التى تنتهج ، والمزروعات التى تزرع . أين الذى كان يتهيأ له أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف ، التى ترتب عليها تفوق أوربا . أتعتقد أن أحدا فى هـذه المملكة خطـر له أن يجلب القطن والحـرير والتوت . لا أحد . كان لا مناص لى أن أقود هذه البلاد قيادة الأطفال . وأن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التى أخرجتها منها ... “ .

أنشأ محمد على قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البـلاد : من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولسنا ندعى بأنه وصـل بقوات الدفاع ، فى عام ١٨٣٢ إلى درجة الكمال — كلا ، فقد كانت للجيش المحمدى العلوى مزاياه وعيوبه . تدرب أفراده فى خلال العشرين عاما ، على حروب المورة ، وكريت ، وبلاد العـرب ، والسودان . فجاهـدوا وناضلوا ، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قادته بين بين ، أى عاديين ، خبروا القيـادات الصغرى . أما الجنـود فلم يكونوا آلات كما كانوا فى حروبهم السابقـة ، بل أصبحوا — بعـد ممارستهم فن القتال فى ميادين العراك التى خاضوها — فخورين بمـا أحرزوه من نصر . ثقتهم بقائدهم أو قادتهم كبيرة لا حد لهـا ، ميالين إلى النظام ويخشون الخروج عليـه ، خوفا من بطش أبيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلهم ورمز مجدهم ، فى يده مقاليد القيادة العليا ، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القـادة الكبار ، تزينها الشجاعة والجرأة ، وكذلك البطش ، فضلا عن اتصال روحى بأولاده الجنـد الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبهم .

وكان سليمان بك ، رئيس أركـان حرب إبراهيم ، نابغـة فى أمور التكتيك والاستراتيك ، يتحلى ببديهة نشطة ، وروح وثابة ، ونشاط ديناميكى . متفاهم مائة فى المـائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

أما خير وصف لإبراهيم خال من الغلو أو الإسراف هـو قول المـاريشال الفرنسى فيجان عنه :

"Vainqueur, L'histoire doit légitiment lui laisser les lauriers de la victoire".

آلـــة الفتح :

استعان محمد على بالقوة للوصول إلى مراميه . فمثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هـذه العقيدة التى ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة فى تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطماعهم . فمن يستطيع أن يمارى فى أن القوّة أهم وسائل السلطان والســـيادة .

إن الحـديث عن الجيش والأسطول ، فى عهد محمـد على ، يتطلب عشرات المجلدت ، وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح ابراهيم باشا فى الشام ، أن نغفـل هذه الناحية ، وهى بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن فى مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد على العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل ، وما قاوم به الترك والشرا كسة مشروعاته لإنشاء جيش ، استطاع محمد على أن ينشئ جيشا حديثا وأسطولا قويا ، وأن يمدهما بكل ما يحتاجان اليه مما يصنع فى قلب البلاد ، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر اليـه محمد على فى البلدان المجاورة[(١)] .

وفى هذا المضمار استعان محمد على ببعثة عسكرية فرنسية ، استقدم ضباطها من فرنسا ، وآخرين من اسبانيا وإيطاليا . كما عنى بإرسال البعوث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

---

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير لليوز باشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩) .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى، وقسمه إلى أنواع : منها مدرسة للمدفعية وللمهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للموسيقى، فضلا عن المشافى ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح فى مصر، فأنشأ فى ترسانة القلعة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى، كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم...

وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين ليمد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للحبال والطرابيش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود ...

وشيد الحصون والقلاع، على ساحل مصر، لأغراض الدفاع، وأمدّها بالمدافع والثكنات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش، فى بابى الزراعة والصناعة، وما يتعين إبرازه — فى هذا السياق — إنه استطاع أن ينظم جيوشا كبيرة وأسطولا ضخما محاربا، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد، لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعا، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا، ويخوض حروبا عدّة، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تمجيد ذكرى هذا الرجل، فى كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة ... .

ولا نستمرئ الكلام عن تنظيم الجيش، ومدارسه، ومصانعه، وبعثاته إلى الخارج، وأسلحته وما إليها مما خلقه محمد على فى مصر خلقا . فقد كتب فى هذا الكثيرون، وسيتبدّى من حديثنا عن الحملات الكثير من التفاصيل الفنية التى تكمل استجلاء هذه المناحى ...

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم ...فحسن طرائق الزراعة، وراقب عمل الفلاح وزوده بالنصائح ، بل وأمده بآلات ، وحفر له الترع والمصارف — كما أدخل المحصولات الجديدة كالدخان والنيلة والقطن والحرير وزراعة الأشجار . فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضى الصحراء وأصلحها للزراعة ... وبذا استطاع هذا الموفق أن يبيع المحصولات المصرية فى الأسواق الأوروبية . فأحرز ربحا وافرا سهل له مواصلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عناء .

وكما أن محمد على صار المزارع الوحيد[١] أضحى التاجر الوحيد، ثم الصانع الوحيد، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد، أو بعبارة حديثة أسسها ليضبط موارد البلاد بيد مدبرة، ولينفق منها ما شاءت إرادته، كما يقتضيه الصالح الوطنى .

وكانت الضرائب موردا هاما لزيادة الدخل . وكانت منها ضريبة الأرض (الميرى) وضريبة "فردة الروس" التى فرضها على كل فرد مصرى بلغ سن الثانية عشرة ، وتتفاوت بحسب ثروة الرجل . فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قرش و١٥ قرشا فى السنة — هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن .

وتسنى لمحمد على، بتشجيعه الصناعات، أن يستغنى تدريجا عن الواردات والبضائع الأجنبية ، بحمايته تجارته وصناعته، ولولا ذلك لما تهيأ له أن ينهض بقوات مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد، على قدر الإمكان .

ومما يذكر أنه لم يتوفر المال لمحمد على، فى بداءة الأمر، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعيها ، فضلا عن مطالبة السلطان بالنجدات العسكرية

(١) ليس المقصود أن محمدا عليا كان يضع يده على جل محصول الفلاح ، بل كانت الحكومة تترك له كثانها من المحصول ليبيعه بحرية .

المستمرة . فلم تنعم مصر بحالة سلم طويلة المدى ، فى ظل حكم محمد على . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ — ١٠) فى التعرف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدته فى حرب الوهابيين (١٨١١ — ١٨١٨) . ثم شغل فى حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدته فى حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والجيش والعتاد . وفى عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد على وعبد الله الجزار ، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣٢ — ١٨٣٣) .

أما المدّة بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعدّ نفسه لحرب كبيرة حتى لا يؤخذ على غرة (١) .

وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يجنيه محمد على من موارد الدولة إبان السلم .

الهدف :

والآن ، وقد انتهى محمد على باشا من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التى هيأها نصب عينيه ، ننتقل إلى توضيح هذه الأهداف ، التى أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان ينبغى أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة ، عقب معركة نفارين ، بدأ محمد على يراجع خطته السياسية العامة . فرأى أن الباب العالى لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبما وعده . فقد منحه حكم جزيرة كريت .

---

(١) A. E. Crouchley; The Economic Development of Modern Egypt; pp. 41-43.

عندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالى للنجدات العسكرية فى حربه ضد روسيا أو فى البلقان ، مكتفيا بإرسال إعانة مالية . فما كان من السلطان إلا أن اشتدّ حنقه على واليه فى مصر، وراح يوقع بين محمد على وابنه ابراهيم .

ونرى محمدا عليا ، بعد معركة نفارين ، يعدّ نفسه لما عسى أن يحصل فى المستقبل . فلما استقر جنود حملة المورة بمصر ، شرع ابراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالى . ومثل هذه السياسة تتجلى فى الخطبة التالية ، التى ألقاها خلال وليمة للضباط :

" ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان . ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعا من خيره . إن مصر حق لمحمد على . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكا غيره (١) .

الشرق أم الغرب :

ولم تكد الجنود المصرية ترتد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدّم دورفتى مندوب فرنسا فى مصر إلى محمد على مشروعا يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال إفريقيا لهما . وامتدّت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمد على طائفة من الشروط الهامة فى صدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمدا عليا وازن القيم الاستراتيجية لهذا القطاع من شمال إفريقيا وتلك التى للشام والعراق . وتبدّت له أيضا ثمرات النصر فى الحالتين .

وأخيرا اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أولا ، وأهمل نهائيا مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئا آخر . إن امتلاكها يحميه ضد عدوان السلطان ،

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) — من قنصل انجلترا العام ٨ يناير ١٨٣٢

ويستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الاسلامية ، وتلبى معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمد على فى الاستحواذ على فلسطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر ... كلا — فإن محمدا عليا صرّح فى عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة[١] بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة . ونجدته للسلطان فى حرب الجزيرة العربية . كما أنه خشى الأثر الروحى للسلطان فى ولايته . فلما واتته الظروف ، امتشق الحسام ، وكان ما سنتناوله فى هذا المقال .

دوافع الحرب بين مصر وتركيا
١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمد على باشا والسلطان محمود الثانى لا يرتدّ لأسباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمد على لكبار الساسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال ابراهيم باشا ، فى خلال حملته الأولى فى الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) إن أبى لا يزال العبد الخاضع للسلطان ، والمحامى عن الدين الحنيف[٢] . ثم أكد محمد على للكولونيل هودجس (Hodges) فى سنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الآستانة قائلا ماترجمته : "أما من حيث تأييد العرش التركى فمن أكثر منى حمية فى ذلك ؟ . إن الشعب الملتف حولى يثور علىّ إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش[٣]" . أضف إلى ذلك أن محمدا عليا كان على جانب وفير من الفطنة السياسية ، فعرف أنه

---

(١) Missett, June 20, 1812 (F. Office. 24 - 4).

(٢) St. John, Egypt aud Mohamed Ali. Vol. II, Page. 522.

(٣) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II, p. 169.

لا يستطيع التغاضى عن مناهضة الدول الأوروبية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة فى الآستانة .

إذن لم يك فى عزمة محمد على أن يحل محل السلطان على عرش الآستانة . فماذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له فى وادى النيل فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأى، فلقد ثبت أن محمدا عليا طفق يذكر الاستقلال فى أحاديثه حوالى سنة ١٢٨٥ . وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى مصر ما قاله له محمد على حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ . قال فيها ما ترجمته :

" أسهبت إليك فى كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا فى اليونان، وأود أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بينى و بين محمد على باشا حدثنى فى خلاله عن أمانيه . قال محمد على : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما إلى الردى ، وأنه ليصعب علىّ أن أنشلها مما هى فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدىّ حل الوسائل التى تساعدنى على الفور . إنى أستطيع أن أفتح عكاء ودمشق و بغداد بكلمة واحدة منى و بوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى إنشائها، وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز" (١) .

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

(١) تلقى المحفوظات الملكية المصرية ضوءا تتبدى خلاله دوافع الحرب المصرية التركية (الأولى) وفى طليعتها — ولا مراء — نيات الباب العالى السيئة

---

(١) Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer, p. 50.

حيال مصر . وأول دليل على ذلك ما كتبه ابراهيم باشا فى خطاب الى والده يقول له فيــه :

” إن ســوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التى تستــتر من ورائها الضربة القاصمة ، التى تعدّها حكومة الآستانة ضد ابراهيم ووالده[(١)] “ .

وكان محمد على قد رفع شكواه الى الأميرال الكبير خليل باشــا من المؤامرات التى تحاك حوله فى العاصمة التركية[(٢)] . وكان ابراهيم ، على الرغم من انتصاراته فى الوقائع الثلاث عكا وحمص و بيلان ، على بينة من أن هزيمته فى الأناضول ستكون سببا لخلاص مصر من أسرة محمــد على[(٣)] . وكان القائد لا يأمل فى توطيد سلم حقيقى بينما يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه فى عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد على ، وقد حاول فى السنة التاليــة أن ينقله الى ولاية سالونيك . وفعلا وصل الى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفى عام (١٨١٣ — ١٨١٤) اجتذبت الآستانة ، الى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وسلحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد على ، الذى عرف سر المؤامرة[(٤)] . وفى عام ١٨٢٩ شاعت الاستانة أن توغر صدر محمد على ضدّ ابنــه ، حينما نصبت ابراهيم باشــا على مكة ، أظهــر المناصب الشريفــة فى الامبراطورية العثمانية . وفى السنة التاليــة ، اقترح الباب العالى على الباشــا (محمد على) أن يولى إدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، الى قبودان باشا ، عدوّه القديم ... الخ .

---

(١) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من ابراهيم الى محمد على .

(٢) وثيقة رقم ٩ — ١٠ محفظة ٣ بتاريخ أوّل ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٣) وثيقة رقم ٤٣ محفظة ٢٤١ بتاريخ ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من ابراهيم الى محمد على .

(٤) Driault, Mohammed Ali et Napoleon (1807 - 1814) pp. 233 - 239.

ولكى يذهب السلطان بعيدا فى الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا ، عدوه اللدود القديم .

ومجمل القول أنه منذ تقلد محمد على حكم مصر ، لم تفتر عزيمة السلطان عن إنتاج كل سبيل ، لعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لا نعجب مطلقا إذا نهض محمد على بمحاربة السلطان ، تستحثه الى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للمحافظة على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للمحافظة على حياته أيضا .

٢ — استقلال مصر :

هذه النوايا السيئة ، التى كان يضمرها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك رأيناه يعبىء موارد دولته ، ويؤمم تجارتها وصناعتها بل وأرضها ، وينشئ القوات الدفاعية ليحمى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وان نضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الباب العالى وكبار رجاله ، الذين يشغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمد على وابراهيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشا الجزار والى عكاء ، فكان يكيل التهم جزافا ضد محمد على ، وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيرا ما طالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لا هوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان ابراهيم يعبر بصراحة عن الاستقلال ، سواء فى مجالسه الرسمية ، أو فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب الى حاكمها التركى

محمود باشا، الذى هزمه فى حمص معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية، وليقطع نهائيا صلتهم بالحكومة التركية (١) .

وبعد أيام قلائل، صرح ابراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدنة، ليغلق الاتصال بالآستانة . وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ . وفى مكاتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظ يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة (٢) . وفى تقرير سرى آخر من ابراهيم لأبيه أشار الى الجهود المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم أسرتهما (٣) .

وعقب انتهاء معركة قونية، وقبل احتلال كوتاهية، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة، كتب ابراهيم باشا الى أبيه الخطاب التالى، يقول له فيه :

"... وطالما يتربع على العرش — السلطان محمد — فسوف لا نصل بقضيتنا الى حل مقبول وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الاسلامية لا تعيش فى سلام — ولذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الاسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط . بل وفى صالح رفاهية وسعادة الأمة الاسلامية . وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين لكى يجلس على العرش العثمانى وريثه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة . وباتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الاسلامى . وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أن هذه الإجراءات سوف

---

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد أفندى . وثيقة رقم ١١٩ محفظة ٢٣٦ عابدين بتاريخ ٢٠ صفر عام ١٢٤٨ هـ .

(٢) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى عام ١٢٤٧ هـ .

(٣) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى الثانى عام ١٢٤٨ هـ .

لا توافق عليها الحكومات الأوروبية . فليس هناك خوف من تداخلهم . و إذا لم يرضوا بإجراءاتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحيطوا علما بما تم . نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع " .

" إننى فى طريقى الى بروسه ومودانيا وسأسرع للوصول اليها . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدّة أطول و إلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قواتنا " .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقبيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين . كتب ابراهيم لأبيه من كوتاهية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا مندوب الباب العالى ، والجنرال مورافيف الروسى ، الى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال ابراهيم : " إن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طلب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية انطاكية وعلائية وجزر ايجه الى مصر — ثم ضم تونس وطرابلس الغرب اذا أمكن " .

وقال له أيضا : " إننا إذا تهادنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاق تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . وما اليها مما تأتى فى هذه الوثيقة الهامة [1] " .

ولا ندرى — الى أى مدى — كان الأب متفقا مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى . ولكن الشيء الذى لا ريب فيه أن محمدا عليا كان يهدف أيضا الى الاستقلال . فقد تحدّث عنه فى بدأة عام ١٨٢٥ ، ففى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى الى الجنرال بليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) . وقد سبق ذكره .

---

(١) الوثيقة رقم ٨٥ عابدين محفظة ٢٤٣ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٢٤٨ ﻫ

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد على لابنه رسالة سرية ، كانت تنم عن رضاه التام بخطة الابن فى استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذر للغاية فى طريقة تنفيذ الخطة ، أى فى نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحد وهو (استقلال مصر) .

مصر لا تفى بحاجيات الدولة الناهضة (المواد الخام) :

قبالة أمنية محمد على وابراهيم للاستقلال بوادى النيل، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للاشراف على مقدرتها (١) .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفى سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الجميز والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير الى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التى تدعو اليها حاجتها ، فى الحرب والسلم ، فى بناء السفن التجارية لنقل الغلال ، عن طريق النيل الى اسكندرية ، وبحرا الى مرفئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقالات الحربية ، التى لم يكن هناك مندوحة من إنشائها فى حروبه .

نعم، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والنيلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يكن من الصواب فى شىء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد على الى أن يحذو حذو تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وابن طولون للبحث عن الخشب ، فى سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد على الانتفاع بحراج الشام والأناضول ، فى الفترة بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا الى مصر مئات من جزوع الأشجار ، انتفع بها فى بناء البوارج ، وفى معامل الذخيرة والسلاح فى مصر .

---

(١) Asad Rustum : The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830 - 1841)

كذلك كان لبنان غنيا بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة وزنك ، وقد كانت لأبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمد على للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرب محمد على من ولاة سورية ورغبته فى ضمها الى مصر .

هذا كان موقف محمد على من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعتادها . كذلك كانت حاجته الى المادة البشرية — وهى الرجال — أهم خامات القتال .

لا ريب ان مصر أمدته فى كل حروبه بالرجال المكافحون . ولكن بعد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى فى رجال الشام مادة تعينه . فتطلع اليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدى البأس كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك (١) وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدائهم الذين لجأوا الى والى عكا . لذلك لا نعجب إذا ألفينا محمدا عليا يعتمد على أهل الشام فى جيوشه . وهو القائل " من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشا كبيرا ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات (٢) " .

والى جانب الرجال أراد المال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الاجراءات التى نفذها بنجاح فى مصر ودرّت عليه المال اللازم للجيوش — فى الشام أيضا . والقطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقا واحدة للصادرات والواردات . وكانت أسواق مصر فى حاجة الى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والماشية ، فضلا عن الخشب والمعادن .

اذن كانت الشام وضمها الى وادى النيل أظهر العوامل فى نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

Supplementd Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha.

---

(١) Guys: Beyrout et Liban. Vol. I, 275-276. Vol. II, 209-210.

(٢) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79.

(٤) مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده مفتوحة فى وجه سلطان آل عثمان . فان صحراء سيناء وحدها لا تعد خطا منيعا للدفاع — والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأول فى جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبعيا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبا ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج فى العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحيثيين من قبلهم .

كان على الجيش العثمانى ، الذى يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيرا . وكان متعينا عليه أن ينقل جل مهماته وحاجياته فى طريق وعر . فاذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل به فى ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأول من خطوط الدفاع خط ثان فى لبنان ، حيث كان فى وسعه الاعتماد على تأييد الأمير الشهابى واتباعه . كذلك كان له خط ثالث فى جبل الكرمل . وخط رابع فى صحراء سيناء . فضلا عن انتفاعه بالثغور على الساحل الممتد من اسكندرونة الى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه فى أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضا . فقد كتب الى وكيله فى الآستانة نجيب أفندى يقول "إن الشام لازمة لسلامة مصر"[1] .

---

(١) وثيقة رقم ٨ — عابدين محفظة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨ﻫ من محمد على باشا الى نجيب أفندى .

(٥) ابراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمدا عليا بدا وعاش وانتهى عثمانيا مسلما، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر الى آخره كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد . ورمى الى أن يجد مكانا لعالمه العثمانى الحى ، فى الدنيا الجديدة، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية[1] .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجيب المؤرخ عن السؤال (وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟) بالجواب الآتى :

ان قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالما صغيرا ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القومية . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءا جزءا فى حكم الدول الغربية .

لقد أحب محمد على مصر الحب كله . أو لم يقل فى منشور له من تلك المنشورات الممتعة التى يعبر بها عن كل ما يجول فى نفسه : " إن نيلنا لوطن عدم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا ما لا تقبله شيم جبلتى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك " .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعة رافع الطهطاوى : " إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع

---

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة كتب أعلام الاسلام .

ابه . وإنه عمل تماما بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) " .

هذه مصر هدف محمد على . كانت وحدها كل شيء فى برنامجه ، فلم يك من عشاق الامبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وميمو وهودار عام ١٨٢٩ معاونتها فى فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها الى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسى لأنه كان ينطوى على إذلال شعب إسلامى .

أما ابراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب فى القضية العربية . فقد كان يرغب باخلاص فى إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية ونشأ فى وسط عربى بحت . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواما طويلة فى بلاد العرب والشام . قد قربته الى فضائل العرب وعيوبهم أيضا . فعرف محاسن هذا الجيش ومساوئه وهى خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم فحك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصى كوّن ابراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التى يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربى وإنهاضه فتكون الدولة شامخة قوية ، روحا وبنيانا .

ولقد يخيل الى البعض أن تصريحات ابراهيم عن العروبة ، وإحياء التراث العربى ، لا تخرج عن عبارات الدعاية ، التى يلجأ إليها الساسة والفاتحون لتخدير الأعصاب . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها . ولكن يبطل هذا الراى أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ؛ فقد صرح مختار بك ياوره فى حرب الشام وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية فى مهمة خاصة إلى محمد على وابراهيم عام ١٨٣٣ قائلا : " لقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نتجاوز سنّ الطفولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب . أننا الآن

ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنورا إلى هـذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى مضمار الحضارة . وزين تاريخـه باقامة المـدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بهـا وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران " .

واتجهت فكرة ابراهيم إلى تحـويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى دولة عربيـة صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون الى شعب واحد . وإعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .

ولقـد كانت أعمال ابراهيم ورجال حكومته فى بلاد العرب والشام خير برهان (١) صادق على إخلاصه فى عقيدته ، يؤيد ذلك ماقام به من المشروعات فى البلدان ، التى خضعت للحكومة المصرية (٢) .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غربال ، ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم ، فيما كتبوه عن عقيدة ابراهيم العربية . الذى يعتبر بحق المؤسس الأول لمنظمة الجـامعة العربية ، التى أعيد التفكير فيها بعـد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى فى البلاد العربية .

لذلك نعتبر ابراهيم باشا المنادى الأول بالوحدة العربية ، فهو — ولا مرية — يستحق مكان الشرف فى تاريخ الوحدة القوميـة فى الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

"He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived of an Arab Nationalist Movement and who was determined to make it effectual".

هذه أهم دوافع النضال التى استثارت الحرب بين محمـد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا فى كتبهم على إيراد أسباب سـلمية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التى بسطناها . يذكرون من بينها :

---

(١) George Douin: La Mission de Baron de Bois le comte l'Egypte et la Syrie en 1833 - p. 249 - 250.

(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — جـ ٣ ص ٧٥

إن سوء التفاهم الذى ساد بين عبد الله باشا الجزار والى عكاء ومحمد على باشا مرجعه هجرة الفلاحين من مصر الى ولاية الآخر، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه ، وسوء نيته، وطموح محمد على للتسلط والتملك .

وما أشبه من أسباب أخرى .

حمـــلة الشـام الأولى
(الجولة الأولى)

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش النظامى، حينما أعدت حملة الشام، حوالى ٧٠,٠٠٠ موزعة بين الأسلحة على الوجه التالى :

١٨ آلاى مشـاة .

٨ آلاى خيـالة .

١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية

أما الوحدات، التى خصصت للحملة بقيادة ابراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب سليمان باشا، فكانت تتألف من :

٥ آلاى مشاة، وهى الآلايات ٨ , ١٠, ١٢, ١٣ وآلاى الحرس

٤ آلاى خيـالة، وهى الآلايات ٣ , ٥ , ٦ , ٧ المدرّعة والرماحة

١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميـدان و٢٠ مدفع حصار و١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .

٤٠٠ جندى من المهندسين .

١٤٠٠ خيـالة من البدو .

وكان فى كل آلاى خيالة أربعمائة جمل ، لنقل المتاع والمياه ، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجياتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥,٠٠٠ جندى ، منها ٣٠٠٠ خيالة .

الأســـطول

وتألف الأسطول المصرى من ٢٣ سفينة حربية ، منها ٧ فرقاطات ، و ٦ قرويته و ٣ أباريق ، و ٧ سفن مدفعية وغيرها من النقـالات الصغيرة . ومثـل هذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نور الدين باشا .

الخطة العـامة :

تتفق — الى مدى بعيـد — خطة فتح الشام بقيـادة ابراهيم ومثيلتها بقيادة نابليون . والفارق الأوحد أنه لم تك لهـذه السيادة البحرية التـامة فى شرقى البحر المتوسط نظرا لوجـود الأسطول الانجليزى ومنعه من حرية العمل . بينـا اعتمد ابراهيم على تعـاون قواته البحرية والبرية ، مثلما فعـل تحوتمس ورمسيس من قبل فقد كان الاتصال مستمرا عن طريق البحـر ، بين مصر وقوات ابراهيم البحرية الشيء الذى افتقده نابليون ، وبعبارة أبين لم يك متيسرا .

قسمت وحدات الحمـلة الى قسمين كان رأس القسم الأول ابراهـيم ، الذى اتخذ البحر طريقا يصل به الى يافا ، وكانت قاعدته ثغر العريش . أما القسم الثانى فكان يقتاده ابراهيم يكن وقد تحرك برا من الخانقاه .

وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) :

قبيل الخوض فى الحمـلات العسكرية ، فى فلسطين والشام ، يتعين أن نأتى بوصف موجز لأراضى هـذا الإقليم ، التى تتألف منها ميادين المعارك التى يتناولها هذا الموضوع ، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات

(١) جاء فى كتاب تاريخ الحرب الشامية لكاد لفين و بارو وصفا موجزا لأبار المياه ، التى مرت بها الحملة فى طريقها الى يافا وكفايتها .

العسكرية وعملياتها التى ينفذها القائد الكبير إلى الجندى الصغير . ولا تعدو الحقيقة إذا أورينا بأن الجيش فى الميدان أشبه بالماء فى الوعاء ، يتشكل به حسبما يشاء !

يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق ، تتباين فى السعة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريبا . وأولى هذه المناطق — الشاطئ ويتكون من عدة سهول ساحلية تختلف فى اتساع رقعتها . وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل جبل الكرملى فى لبنان ، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية . ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل شارون . ويبلغ متوسط عرضه هناك حوالى ١٥ ميلا . وكثيرا ما تتجه السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة من مجارى المياه ، ووديان الأنهار ، كسهل اسدرائيلون شمال الكرمل ، ووادى العاصى (الأورنت) لصق أنطاكية . غير أنه فى الوسط ، حول طرابلس وبيروت ، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطا وعرا للغاية .

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى ، وهى ثلاث سلاسل جبال الأنصارية فى الشمال (كابسوس قديما) ولبنان فى الوسط ، وافرايام ويهودا فى الجنوب . والسلسلتان الأولتان عبارة عن جبال شامخة تصل فى بعض جهاتها إلى ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليلا ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم . وتحتوى ثنايا رقم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة ، التى تسلك فيها الأنهر الثلاثة : العاصى والليتانى والأردن . ويصب الأوليان فى البحر مباشرة — الأول فى فجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ : والثانى فى فجوة أضيق لصق صور من الشمال . أما الأردن ، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق . ويتميز العاصى والليتانى بخصب وديانها الفسيحة ، أما وادى

الأردن فضيق وغير مملوء بالمستنقعات ولا يتهيأ عبوره إلا فى مناطق قليلة ، ويمتد وادى الأردن إلى الجنوب : ويتصل بوادى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة .

وإلى شرقى منطقه الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشامخة (التى يسميها القدامى جوف سورية) وهى مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة فى كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الخصبة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضى الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حدًّا فاصلا ، تصلح فى حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام ، مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز . أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهى القسم الشمالى من البلاد .

ولاية بيروت ، وهى السواحل البحرية وما يليها فى داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالى حيفا جنوبا .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهى تشمل داخلية البلاد وشرقيها .

متصرفية القدس ، وهى تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهى الخامسة ، وكان لها نظام خاص واستقلال إدارى ولها والٍ تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين ، وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سورية و بيروت .

وكانت مقاليد الحكومه بيد والى الأيالة الشامية ، وكان فى معظم الأحوال مستبدًّا ، وكثيرا ما صادر الناس فى أموالهم . أما الشئون العسكرية فكان مرجعها مشير الجيش العثمانى ، ومقره فى دمشق .

كان الخراب شاملا البلاد ، والضرائب فادحة ، والظلم فاشيا . وظل الحال سنين طويلا على هذا النسق ، حتى صارت البلاد على شفا الدمار . إلى أن منّ الله بالفرج ، بدخول القوات المصرية ، فأمن الناس على أرواحهم وأموالهم[1] إلى قبيل مبارحتها فى عام ١٨٤١ . ولم يزل أهل الشام يتحدثون بإبراهيم باشا وحكومته إلى هذا الحين — وكان محمد باشا شريف واليا على الشام من قبل محمد على . يجرى على خطة مولاه من الإصلاح والعدل ، مما اعترف به المؤرخون من أهل البلاد وغيرهم وكذلك ما شاهده الرحالة أو رجال الحكومات الأجنبية .

مسير الحملة :

حدد ميعاد مسير الحملة فى أوائل عام ١٨٣١ ، بيد أنه تأجل من جراء انتشار الكوليرا فى مصر ، وقضت على حوالى خمسة آلاف من الجيش فحسب !

وفى يوم ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت الطليعة من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء إبراهيم يكن[2] ، فمر ببلبيس والصالحية فقاطيه فبئرالعبد والعريش ، حيث استراح يوما ، ثم وصل خان يونس فغزة[3] ، ومنها اتجه إلى يافا حيث تقابلت القوات مع وحدات القائد إبراهيم باشا الذى بلغها بحرا . فلما رسا الأسطول قبالة ثغرها نزل وجهاؤها وعرضوا عليه التسليم . وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فنزل بلوك لاستلامها واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها[4] . وهنا اجتمع قسما الجيش لتنفيذ الخطة الرئيسية .

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام — طبع مصر سنة ١٨٩٦ .

(٢) الملقب بالصغير — وهو ابن شقيقة محمد على باشا — ولد فى مصر عام ١٨٠٤ ، وهو شقيق أحمد باشا يكن الذى ولى على الحجاز ثم عين ناظرا للجهادية — ويلاحظ أن معظم قواد الحملة كانوا شبانا ومنهم إبراهيم باشا الذى لم يتجاوز الثالثة والأربعين بعد — كذلك أحمد المنكلى وسليم الحجازى وعباس حلمى .

(٣) كانت لغزة قلعة منيعة تقع على مرتفع خربها الفرنسيون تخريبا تاما ولم يلق المصريون أية مقاومة من رجالها .

(٤) ليافا موقع أهم من غزة لقربها من البحر ، وثغرها يسمح لرسو السفن وكان للدينة سور وأبراج منيعة .

ثم اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدّمت وحدات خفيفة أخرى يقتادها حسن المناسترلى واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس .

التر تيبات الإدارية :

إن حملة عسكرية كبيرة مثل هذه كان لا بدّ لها من ترتيبات إدارية منظمة . ففضلا عما كان يحمله الجنود معهم من التعيين الميدانى . فقد كان يرسل البقسماط على سفن من مصر إلى ثغور الشام . وأنشئت النزلات فى المدن والموانئ ، خزنت بها كميات وفيرة من التعيين الجاف ، والذخيرة ، والبارود ، والخرطوش والأكياس ، والقذائف الحجرية ، وغيرها من الفشنك وعتاد الخيل ومهمات المدافع . وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود من مختلف الذخيرة فى مستودعات الجيش ، كلما امتدّت خطوط مواصلاته . وقد حفظ لنا التاريخ اسم مدير أكبر مستودعات التموين وهو نظيف بك ، كما أقيمت مستشفيات الميدان .

وقد عثرنا على وثيقة هامة ، عبارة عن تقرير من المهندس قاسم أغا بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ (١٨٣٢ م) تحتوى على آراء هامة فى هذا الصدد ننقلها لأهميتها[(١)].

بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه و بينها الصحراء . وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليس هناك غلال تموين الجيش لسبب ما استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فاقترح ما يأتى :

أولا — مد خط من مصر و إنشاء شون للغلال على خط مستقيم طول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية — فى الصالحية وقاطية والعريش وغزة و يافا وحيفا وصور وصيدا و بيروت وطرابلس وما إليها . و يودع فى كل هذه الشون مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤنة الجيش من مصر إلى محطة فمحطة حتى المعسكر .

---

(١) وثيقة رقم ٢/٦٩ محفظة رقم ٢٣٢ عابدين بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ تقرير مقدم من المهندس قاسم أغا .

ثانيـا — ينشأ فى دمياط مستشفى كبير ليرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعاف للمعالجة فيه — وتنشأ فيها أيضا أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد . فيعين منهم الحراس فى الشون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآلايات — وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث يبـقى الآلايات التى يكون منها كاملة العـدد و يحفظ أيضا الطريق المشترك الذى بين مصر و بر الشام و يقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى هنا .

معارك حصار عكة :

كانت عكة محصنة بأسـوار متينة وتحميها عدّة أبراج من الشرق والشمال . أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة من الأسوار القائمة من جهة البر . والمياه المجاورة لهـا قليلة العمق لا تسمح للسفن الكبيرة بالرسـو على مقربة منها . وكانت جميع الحصون فى حالة جيدة . وقـد وصفت حصون عكاء فى كثير من الكتب المعاصرة . وممن تناولها بالإفاضة الأستاذ أسد رستم (١) . وقد رأينا أن نبينها فى خارطة مرفقة بهذا رغبة فى الإيجاز المبتغى . وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مدفعية قوية وكميات وفيرة من المؤن والذخيرة والمياه والطعام. تكفى الحامية لحصار طويل الأمد . و بالإختصار كانت استحكامات عكا غاية فى المنعة بعد الإصلاح الذى شملها عقب إنسحاب الفرنسيين منها .

وفى يوم ٢٦ نوفمبر (١٨٣١) استهل إبراهيم محاصرة عكا فاستبسلت حاميتها فى الدفاع عنها — وقد امتاز العكاويون بروح قتال و بمعنوية عالية إلى نهاية القتال —

---

(١) Notes on AKKA and its Defences uuder Ibrahim Pasha. 1926.
Assad Rustum

وانتصرت حاميـة بعض الأبراج على المصريين ، مما حدا بابراهيم أن يطلق نيران مدفعيته عليهـا أياما متواليات لكن بدون جدوى . وفى هـذه الأثناء أرسل محمد على إلى عكا مهندسا قديرا تولى إدارة أعمال الحصار بكل دقة . وقد تمكن المصريون . بالرغم من شـدّة مقاومة الحامية ، من فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور ، وأمطروا المدينة وابلا من القنابل والرصاص ، برا و بحرا ، فخربت المدينـة ومات الكثيرون من رجالهـا . ومع ذلك استمرت تدافع بكل شجاعة . وصبت المـدافع المصرية النيران على أسرارها ونجحت فى فتح ثلاث ثغرات ولكن بدون أثر . وفى خلال تبادل النيران أصيبت بعض السـفن المصرية بتلف كبير ، الشيء الذى دفع إبراهيم على القيام بهجوم عام . ولكن قبيل شروعه فى تنفيذ خطته دعا عبدالله باشا إلى التسليم فأبى .

استعصمت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر بدون معـارك تستحق الذكر ، فارتاى إبراهيم الصمود قبالتها بينما تقدّمت بعض وحداته — كما قلنا — واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس فى الشمال . ولمـا وضح فوز إبراهيم باشا العسكرى ، وتقدّمه الخاطف ، واستيلائه على ثغور الشام الأخرى ، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخلية البلاد .

محمد على خارج على الخليفة :

رأى السلطان امام اعتداء محمـد على أن يعلن عصيانه وخروجه عليه [1] . وذلك لكى يؤلب عليه العالم الإسـلامى . ولمـا لم يذعن هـذا إلى تهديده بادر فى إعداد جيش يهاجم به قوّات إبراهيم خلال انشغاله فى حصار عكا . ولكى يحرم خصمه من الانتفاع بالمبادأة ويربك خططه التى وضعها .

(١) الفرمان الموجه من السلطان لحسين باشا الصادر فى الأستانة فى آخر ذى القعدة عام ١٢٤٧ هـ .

الجيش العثمانى النظامى

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل، الذى أعدّه السلطان محمود الثانى ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوات الإنكشارية فى مذبحة فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٣٠ ألف جندى فى أخريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان. ولم يك ليتم له هذا الموضع العسكرى الجديد فى بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية . مما جعل قبوله للنظم الأوروبية المتحدثه أمرا غير مستساغ .

وكان على رأس الجيش العثمانى السرعسكر حسين باشا ، الذى تم على أيديه إبادة الإنكشارية . ومثل هذا القائد بدأ حياته حمالا بجاسوسا ثم قائد قلعة ثم مهيجا بغلادا ثم باشا الباشوات . قيل عنه أنه كان سيفا ماضيا فيما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا ، وهى المعطف القصير المزركش بأسلاك الذهب ، وأهدى اليه سيفا مرصعا بالماس وجوادين عربيين مطهمين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم . وولاه على مصر وكريت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل فى معركتى حمص وبيلان بعد أن كان واثقا بالنصر فلم تمض ساعتان على نشوب القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفوا له على أثر . الى أن كشف أمره . وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، فى إحدى مزارع ولاية بروصة .

وكان حسن باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحوّل عن تفكيره القديم ، ولم تتطوّر وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التى أدخلت على الجيش الذى قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوات الحرس ، وهما دعامتا الجيش المقاتل . وكان

محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا الى التجديد الحديث ؛ لذلك انقسم الجيش الى فريقين : فريق المحافظين وفريق المجدّدين ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضنية كانت هى الأخرى سبب الكارثة التى تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠,٠٠٠ جندى منها ٤٥ الف من وحدات النظام الجديد، من الجنود الذين عنى بملبسهم ومآكلهم ورواتبهم تجمعهم فضائل القناعة، والشجاعة ، والصبر . وكانوا فى الواقع عدّة المعارك، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهو النظام فضلا عن إسرافهم فى الحصول على الغنائم — وكان ضباطهم على شىء من التدريب . أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره الى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاه الى رتبة المشير (سر عسكر)، بأن ينظم جيشا فى الأناضول، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمدّه بالرجال والعتاد ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة . وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمدا عليا كان قد اكتسب احترام العالم الاسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام ادريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى

و بالرغم من تفوق قوات عثمان باشا على قوات ادريس بك فى الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقـام ادريس بك على أورطة الى السهل المكشوف ، خارج المدينـة ، وهاجم قوات عثمان باشا ، التى تفوق قواته عددا وعتادا ... فأبيدت الكتيبة وفر ادريس تاركا خلفه بقية وحداته .

وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس . وفى ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعـه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليـل ، وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة — وفروا أمامهم الى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس الى أسماع ابراهيم باشـا فى عكاء ، و بلغه أن طليعة جيش تركى تتجمع فى منطقـة حماه، فرأى أن يزايل عكا تاركا إياها للقوات المحاصرة ، وكان ذلك فى التاسـع والعشرين من شهر مارس، وتقـدم الى صيداء و بيروت رأس قول مؤلف من ١٠,٠٠٠ جندى منها آلاى الحرس والالاى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفى ٤ ابريل وصل الى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحول السريع ، واقتراب ابراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيتـه وعتاده ، وولى الأدبار الى منطقة حماه ، حيث عسكرت طـلائع الجيش التركى .

---

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك و يمر بحمص وحماة وأنطاكية و يصب عند السويدية ويعرف باسم نهر العاصى .

وفى اليوم التالى دخل ابراهيم طرابلس ظافرا وأمر باعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصبح مشرفا على وادى نهر الأورنت (١) على مبعدة مرحلتين جنوبى حماة .

معركة الزراعة

قدر ابراهيم موقفه فرأى أنه لايبعد كثيرا عن عكاء . ولذلك ارتأى أن يترك حمص حيث لايتوفر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادى الأورنت (العاصى) حتى وصل الى خان قصير ، حيث عسكرت قواته الى الشرق فى سهل الزراعة (١) .

توهم عثمان باشا أن تراجع ابراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالى المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة ابراهيم ، وكان هذا قد دبر له الخطة الناجحة وقسم قواته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته فى أماكن مستورة عن بصر العدو . وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فانخدع القائد العثمانى وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هذه صامتة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتدّ المصريون بسرعة عجيبه خلف المدافع وبمجرّد انتهاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فحصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم وسادهم الهرج ، وفى وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدّوا خائبين . فطاردتهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم الى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا .

انتهت معركة الزراعة (١٤ ابريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركى ، وارتد عثمان باشا الى حماه ، وبقى فيها يرتقب وصول الامداد .

---

(١) قرية جنوبى حمص .

وعاد ابراهيم الى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ، الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

تقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر الليتانى الذى يربط قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن والأورنت — وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن ، والليبانى ، والأورنت وتعمل معا أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب . فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى إبراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون وصول إمدادات الى الأتراك تلك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الجزار لفك الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه .

لذلك رأى الاحتفاظ بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من الاستيلاء عليها . ولضمان هذا لم يتردّد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثا ، والآى الحرس ، والآلاى السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللأهمية نورد فى هذا السياق بيانا للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوات غير نظامية .

والآن وقد نظم ابراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسى) الأوضاع الجديدة لتوزيع قواته فى شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للموقف العسكرى العام ، عاد الى عكا العتيدة ، التى لم تلن صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائيا من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة فى جنب قواته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه فى خطوات حثيثة .

عود الى عكا

لم يكن الاستيلاء على عكا بالأمر اليسير، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون وعزيمته ، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجعان ابراهيم ولم تسقط فى أيديهم . ولم تكن منعتها هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كانت للخطة التى انتهجها الباب العالى مانعا . فقد كان السلطان يصب على ابراهيم اللعنات ، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الاسلام . فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفا يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه فى مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وابراهيم و إباحة دمائهما . وهذا — ولا مرية — له أثره على الروح المعنوية للمدافعين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على محمد على فى ٢٣ أبريل .

عاد ابراهيم بعد أن اطمأن للموقف العسكرى فى الشمال الى عكا فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه — وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان طالعته فيه يخوض غماره . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيرها . فلما أذنت

الشمس بالمغيب ، حمل ابراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع عبد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئا ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها

أوضاع القوّات فى الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون[1] استيلاء ابراهيم باشا على عكاء وصفا مسهبا نلخصه فيما يلى :

فى صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا ابراهيم باشا الى خيمته كبار ضباط القوات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

اللواء أحمد المنكلى يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاه للهجوم على برج (قبو برجى — قلعة الباب) .

الكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبى صالح .

الكتيبة الثالثة المشاه بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاويه . وعينت قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوات السابقة المهاجمة عند الحاجة .

وصدر الأمر الى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرالاى للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم

وصدر الأمر الى كتيبة أخرى بنقل السلالم ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل الى الخندق الواقع بجانب قبو — برجى ، و بأن تكون هناك على استعداد للهجوم .

وزوّد القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

St John - Egypt under Mohammed Ali. Vol. II, pp. 492–496. (١)

ومن تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائيا للجفوة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتباط فى وادى النيل، حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات[1] .

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع، وأتموا جل هذه الأعمال فى غمار الظلام، بينما كانت نيران المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفى فجر ٢٧ مايو، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام بالهجوم ، واستمر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفى المساء سقطت عكا فى قبضة المصريين .

ومن ثم جاء أعيان عكاء يلتمسون الرحمة — ولما كان دائما من شيمة الشجاع تعظيم الشجعان — فرأى ابراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بحاربتهم — فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم .

أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

وكان طبيعيا أن يعمل الجند النهب فى عكا، مثلما يفعل زملاؤهم فى الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، رغم ما أصدره إبراهيم من الأوامر . انطلق الجنود فى المدينة ينهبون محتوياتها، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى . وبذل القائد الكبير كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان مما فعله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيردّ إليه إذا وجد، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

---

(١) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداءة الى سقوطها ، كثيرة فى مجموعة المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ، نذكر من أهمها .

— النشرة الثالثة للجيش المصرى فى الشام ، فى المحرم سنة ١٢٤٨ (٦ يونيو ١٨٣٢) .

— تقرير القائد العام سمو إبراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

— تقرير إبراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٤٢) .

أما خسائر المصريين فى معارك حصار عكا فهى :

الجـــرحى		القتـــلى	
١	قائمقام	١	قائمقام
١	بكباشى		
٣	قائد أورطة	٢	قائد أورطة
٣	صاغ	٢	صاغ
٨	يوز باشى	٣	يوز باشى
٤٧	ضابط	١٥	ضابط
١٣٦٨	جندى	٤٨٩	جندى
١٤٣٠	المجموع	٥١٢	المجموع

الجـــولة الثـانية

معركة حمص

فى ساحة الحركات :

فى أوائل مايو عام ١٨٣٢ ، كان معظم الجيش العثمانى قد تجمع فى قونية ، على السفح الذى يقع شمالى طوروس ، واحتلت أدنة بعض الوحدات فيما يلى الجبال المذكورة من الجنوب .

وفى ١٤ مايو كان حسين باشا يقيم مع جيشه فى قونية ، لا يبدى حراكا وكأنه لا يتأهب لمعارك أو حروب ، تاركا الحبل على الغارب للجنود : لا تدريب أو مناورة ولا استعداد ولا نصائح للضباط أو توجيه . فعاثوا فسادا ، ونسوا جيادهم فلا عناية بأمرها ولا علائف تقدم لها . وعبثا ما حاوله الضباط الأوروبيون فى هيئة أركان حرب القائد ، بل قل ضاعت جهودهم هباء منثورا .

وعلى نقيض ذلك ، كانت الحال فى صفوف الجيش المصرى . نشاط موفور ملحوظ بين الجنـد وضباطهم ، معنوية عالية نتيجة لانتصاراتهم فى ستة أشهر ، تدريب متوافر وتطعيم لروح الحـرب بين أفراد وحدات الامدادات ؛ تصلهم بين الفينة والفينة أنباء زملائهم فى الميادين الجنوبية .

كان محمد على يلاحق ابنـه بالآلايات المدرّبة أوّلا بأول . فوصلته الآلايات المشاة ٥ و١٨ و٢٠ والآلاى الثامن الخيالة و٣٠٠٠ بدوى لسد خسائر الوحدات ، وملئ المراكز الشاغرة ، لتمسى مرتبات الحروب كاملة وسفن العتاد تواصل الليل والنهار فى موانئ الشام التى باتت كلها خاضـعة للقوات المصرية . وأسرع إبراهيم فى إصلاح ثغرى عكا وحيفا بمعاونة الكولونيل المهندس (Romei) الفرنسى لتكونا قاعدتين ساندتين للحملة المصرية وساعده فى ذلك ٤٠٠ من جنود المهندسين و٢٠٠٠ من العمال . وكان الآلاى العاشر المشاة وقليل من الخيالة تتولى حراسـة خطوط مواصلات القاعدة .

وهنا كان على إبراهيم أن يعمل فورا ، دون مضيعة للوقت ، واقتناصا للفرصة السانحة . فما كان بوسعه أن يبـدّد الوقت فى السرور والحفلات . وعلى عاتقـه أهداف أخرى ينبغى أن يصلها ببعضهـا وإلا تلاشت الظروف المهيأة ، و باغتـه جيش السردار حسين باشا ، الذى انتهى من حشده فى الأناضول .

لقد أراح جنده، وتمتعوا بنوم هادئ بعض الليالى، تحت قبة السماء الصافية. وانتهى من ترتيب الشئون العسكرية فى عكا ، وتقدم برأسه المفكر ينظم الخطوط الرئيسية ، فى الجولة الثانية إلى دمشق .

زايل عكا فى يوم ٩ يونيو (١٨٣٢) فى جيش مؤلف من ١٨ ألف جندى ، نصفهم من الوحدات النظامية ، قاصدا دمشق ، تلبية أو إذعانا لأمر محمد على. لأن الاستيلاء عليها وعلى حلب وعكا وطرابلس معناه الاستيلاء على الشام كلها . ولمـا كان الوالد يعتقد كما أدرك نابليون من قبل أن النصر يحب التقدم الذى تؤازره

الكتائب اللجبة "La victoire aime à marcher des gros bataillons." لذلك نشاهده بمدابنه القائد بالوحدات والعتاد التى يتطلبها الموقف العسكرى أولا بأول .

وفى ١٤ يونيو، وصل ابراهيم الظافر ضواحى دمشق ، برفقة الأمير الشهابى ، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (١٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هاربين . ودخل دمشق فى ١٦ يونيو، فقابله الأهالى بفرح واغتباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية فى الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد ، وعين عليها ابراهيم يكن باشا حاكما ، وأقام لها حامية من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الخيالة الثامن .

معركة حمص

اضطر إبراهيم أن يمضى أسبوعين فى دمشق إزاء الأنباء التى جاءته بانتشار الكايرا فى حمص حرصا على سلامة جيشه ، ولم يبدد هذه الأيام هباء ، إذ راح يعدّ العدّة لأسباب التقدّم، ويدرّب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوروبيين — قد تخلى عن مراكزه حول أدنه، وتقدّم الى انطاكية ثم أنفذ محمد باشا ،والى حلب ،على قيادة مقدّمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه فى حمص . والمسافة بين أنطاكية وحماه لايستهان بها . ولا ندرى كيف أمر السردار أكرم قائد مقدّمته بأن يبعد عن الجيش ... هل يا ترى نسى تعليمات المقدّمة فى قانون الحرب ؟

فلما علم إبراهيم بالخطأ الذى اقترفه حسين باشا ، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركى وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك . فزايل دمشق زاحفا على حمص[١] التى كان القائد التركى محمد باشا قد وصل اليها ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التى كانت تحت قيادة عباس حلمى باشا وحسن المناسترلى .

(١) تقع مدينة حمص على الشاطئ الأيمن من نهر العاصى (أورنت) وموقعها غاية الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوبا — وطريق أنطاكية وحلب شمالا .

فصارت القوة ، التى تجمعت تحت قيادة إبراهـيم لدى وصوله إلى مشارف حمص فى الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجـان جـ ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثمانى إلى جنوبى حمص ذات القلعة المهدمة وتحت أسوارها .

أوضاع الجيش التركى والمصرى :

كان محمـد باشا يثق بالانتصار على خصمه " إبراهـيم وفلاحيه " بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده فى معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفى صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التى يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السـير الطويل فحطوا بأسلوبهـم شمال المدينـة ، على شاطئ الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه فى مأمن من جنود إبراهيم — فأجل الى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التى أعدها له ولضباطه — الباشا والى حلب — تكريما لشخصه .

وبينما كان يتنعم بمـا لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثمانى ، وألوان الشراب السورى ، كان جنده غادروا مخيمهم يتضورون جوعا فى أسـواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفى مساء يوم ٧ يوليو (أيضا) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعـلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركى إليها .

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وسـتة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠,٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة فى أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثمانى .

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تحرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه لتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حلب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية وبآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستهواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليهما إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا الرأى وحبه للمجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدّى إبراهيم ، فى سبيل شهوه المجد .

وقادته فطنته بأن يلتزم خطة الدفاع ، ويشبك نفسه بحمص ، متخذا منها تكأة لحمايته ، ومن القناوات والمبانى المهدمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدّم جيش إبراهيم ويؤخره أياما ، فيعطى الفرصة للمشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونشرجل قوّاته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأول أربعة آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق تتكئ ميمنته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأول الصف الثانى ، وضع فيه آلايين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بها قلب وميمنة الصف الأول . والى شرق الطريق المذكور ، عند أكمة وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأول .

وفى الصف الثالث ، الذى امتد بين الأورنت وضيعة مخربة ، تبعد حوالى ١,٨٠٠ متر عن جنوب شرقى حمص ، وضع قوّاته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته ، أما توزيع مدفعيته فتم على الوجه الآتى :

وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآنفة الذكر بمعدل مدفع فى كل أورطة مشاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعا فى مواقع مختارة خلف ميمنة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبينما كان الجيش التركى يتخذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها الهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلته على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسيره فى فجر يوم ٨ يوليه متجها صوب حمص . وكان ترتيب سير القوّات كالآتى :

فى المقدمة "الآلايات المشاة" ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس .

والآلايان الخامس والحادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ، خلف منتصف القوّة .

أما المدفعية فكانت ثلاث بطاريات منها فى الصف (الخط) الأوّل ، وأربع بطاريات وأبوسين بين الصف الأوّل والثانى[1] .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبى التشكيل كله — فى ميمنته كما فى ميسرته ، ويحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجناب للقوّات الاحتياطية .

---

(١) الصف هنا يطلق على الخط بأسره

وقد كان يسمح هـذا التوزيع أو التشكيل لقائد الجيش — ابراهيم باشا بأن يقوم بالمناورة بحرية واسـعة، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التى سيتقدم عليها، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو، إذا غير خطته فى اللحظة الأخيرة الى هجوم مضاد . وكانت الأرض الى شرق الضيعة المخربة تسمح لابراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسـعة حول ميسرة الأتراك، وهى أضعف نقط فى خط دفاعهم، والتى لم ترتكز على موانع قوية تكسر من حدّة الهجوم المصرى إن لم نقض عليه .

وأخيرا اتخذ ابراهيم قراره النهائى :

" يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوته، يطغى بمشاته وخيالته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسـعة، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأورنت لشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأول والثانى، وبذلك يربك عملهم نهائيا .

" يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٣ و ٤) والالاى الثالث الرماحة المدرّعين نحو الضيعة المهـدّمة، وعند وصـولها لأنسب المواقع تفتح تشـكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

" آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوة السابقة وتفتح تشكيلها عنـد وصولها الى غرب وجنوب غربى الضيعة المهدّمة .

" بطارية مدفعية وأبوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثـانى عشر وتفتح وحداتهـا على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

" فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصـلة مكوّنة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين

نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة ميمنة الأتراك وكاحتياطى لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك ، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد الى إصدار أوامره الى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصد العدو المفاجئ ، ولكن كان الهرج قد عم الميدان .

لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدد إصاباتها بكل دقة وإحكام ، وترد عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محددة ، وتتبعثر طلقاتها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى الميمنة فانضموا الى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة الى لحظاتها الفاصلة . ورأى ابراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق ، فأمر آلايات الفرسان ٢ و٣ و ٤ ومكانها على ميمنة صفوفه بالزحف شرقا (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه المعركة لأن على نجاحها يتوقف مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهدمة بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة وكان الهجوم شديدا ومحكما . فتراجع الترك وتفرقوا . واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وقد نجحوا — فأمد إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة (١٢ آلاى) والمدفعية فأوقعوا بهم وفرقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت الى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصريين المحكمة . وفى الوقت الذى لم تمده مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن

وتقدير الموقف الذى أصبح حرجا بعد أن أصبحت ميمنته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغى عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضـادّ فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعـل — ووجد حلا يائسا يخرجه من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا الى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى للقيام بالهجوم بالسونكى لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خيالته بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فكان هجومه غير منظم وقابلته مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر اليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمة من الجنب الآلاى ١٢ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئا لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصدا مدينة حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه ، واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمـة والذعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعـد لم شعثهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقـع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم ابراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر محتلا المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قوّاتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر ابراهيم باشا فأرسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وكانت خسائر الترك فى معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و٢٥٠٠ أسرى واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده . أما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى .

وفى اليوم التالى دخل المصريون حمص (٩ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالتهم النظامية على أمرهم فاستولى غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! .

نقد عمليات الجيشين

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركى مادة مستفيضة من الأخطاء التى اجترحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها فى خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به فى الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هزيلا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا (formation lineaire) فلم يك قادرا على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم تنتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأورنت والقناة) ومع ذلك فقد كوم محمد باشا فى هذه الجهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه فى الهواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التى تحيط بجنوب حمص وتركها والضيعة المهدمة لعدوه الذى انتفع بها تماما .

ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته فى نيران متجمعة على وحدات المصريين ، بل نثر توزيعها على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأى نجاح سواء فى حالة الدفاع أو فى حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

أما فيما يختص بحركات المعركة من الجانب المصرى فقد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقد نظر ابراهيم جليا الى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وبتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقدم أو هجوم جانبى أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقا لما يبتغى . وأحسن تعبير لبراعة مناورة ابراهيم نجده فى عبارة المارشال فيجان فى كتابه المعروف .

"La manouvre etait en germe dans le dispositif initial de son armée".

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجموعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان استخدام المدفعية يسير حسب خطة موضوعة لا هباء ولا ارتجالا ، وهى قواعد المدرسة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك ، وهضمها إبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى ستحدثه على العدوّ .

ففى معركة حمص تقابل وجها لوجه للمرة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوّق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا ، وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ومحى الجنود المصريون هزيمتهم ، أو بعبارة أوضح هزيمة أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى .

وفى التقرير الذى رفعه ابراهيم لأبيه عن المعركة ، قال عن العدو :

" لم أر فى حياتى هزيمة كهزيمة العدو . فانى لا أغالى إذا قلت انه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لى بسببهم نبض أو اكترثت بهم ، ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا . وقد أرسلنا الأسرى الى عكا وأمرنا ديوان أفندى بأن يقبل فى التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب فى العودة الى وطنه اليه فى مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا .

معركة بيلان

الجولة الثالثة

قضى إبراهيم وجنوده ليلتهم فى المواقع التى كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفى تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجعانه ، وقصد بهم إلى حلب . فبلغ حماه فى عاشره وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفى حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التى كدستها القيادة العثمانية ، لأنهم رأوا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقد سارع إبراهيم فى مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته فى الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهنيكه يوم ١١ ومعار ونعمان فى يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ وزيتان يوم ١٥

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا منذ تركناه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونه وإنطاكية . كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠ جمل تحمل الذخيرة ميمما صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق إبراهيم ويملى عليه المعركة فالتقى فى طريقه بفلول جيش محمد على باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك ارتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربية .

وطلب حسين من أعيانها أن يمدّوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها ...

أحتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله . إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ...

وقبالة عناد الحلبيين اضطر السردار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو قاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثمانى ، فأصبح تحت عاملين ، هل يعود إلى بيلان (جنوبى اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيرا قرّ قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان[(١)] وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حلب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدّة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم . وقد أفاد من بقائه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدّت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين . وفى أثناء إقامته جاءته وفود من أورفا وديار بكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

---

(١) تقع مدينة بيلان جنوبى الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها . ويصل إليها طريقان طريق من كليس وطريق من أنطاكية . ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل الى المدينة (الحركة القومية — للرافعى جـ ٣ ص ٢٥٣) .

وفى ٢٥ يوليو زايل حلب مبتغيا أنطاكية ، وقسم قواته إلى شعبتين : احدهما تؤلف من غير النظاميين اتخذوا طريقهم إلى أنطاكية مباشرة وثانيتهما قواته النظامية عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .

وفى يوم ٢٨ وصل إلى قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البدو و بضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

وقف إبراهيم أمام جبل أمانوس ، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لها شاهق العلو ، يرتفع نحو ١,٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذى يصل بين سهلى أنطاكية وخليج اسكندرونة ، أو يفصل بين سوريا وكيليكيا ، وهو الممر الذى اجتازه جميع من قادة العالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشوريين وفرس وأغريق ورومان وعرب وفرنج وترك وسواهم . واليوم يدنو منه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس عليه ذلك بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يوليه .

مواقع الجيش التركى الدفاعية :

كان الجيش التركى مؤلفا من نحو ٤٥٠٠٠ من المقاتلين ، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعا بقيادة حسين باشا ، يرابط فى مواقع منيعة — اتخذ مواقعه على قمم جبال بيلان . فاحتشد المشاة وتؤلف من خمس أورط فوق هضبة ، يصل طرفه الأيمن (ميمنة الجيش) إلى طريق وعر يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قرموط إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل فى أنطاكية إلى بيلان و يؤلف من ١٤ أورط مشاة . أما ميسرة الجيش (٥ أورط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريب من الطريق . وأقام الترك أمام صفوف المشاة بعض الموانع والبلانقات وزعوا خلالها المدافع . وفى واد ضيق يقطع الطريق جنوبى بيلان كان آلايان من خيالتهم .

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة فى خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أول نظرة أن حسين باشا لم يك موفقا فى وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطى فى توزيع قواته وأهمل العمق ، الذى يسهل عليه القيام بالمناورة ، على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق المواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

كشف إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قواته أن تنال منها فوزا . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ . فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجومهم يوم الغد ليحرموا العدو من تعزيز مراكزه أو وصول إمدادات إليه من اسكندرونة .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة ابراهيم ، وهو الكابتن الفرنسى (Thévenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته . وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم ، فى اليوم التالى (صباح يوم ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجنب ، تمهيدا للإحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفا لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قواته للإحاطة بميمنة الأتراك — وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص — وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوات الآتية :

٤ آلايات مشـاة
٣ آلايات خيـالة
٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفى مصدر آخر ٢)
٢ مدفـع أبوس

وأخذ ابراهيم باشا على كاهله قيادة هـذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيــذه .

وأمر أمير الآلاى حسن بك المناسترلى بالاسـتعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدّم عن طريق بيلان أنطاكية، على رأس الآلاى ١٣ و بطارية مدفعية — فتقدّم إلى الطريق واحتل المـوقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيـالة الخامس كقوّة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدرّعين ، فطلب منهم العمل بين القوّتين الآنفتين، ومساعدة إحداهمـا لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة و بطارية ميدان فى الاحتياط .

المعركـة :

ولمـا شاهدت القيادة التركية تقدّم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى سرت بفتح النيران الشـديدة على طريق تقدّمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردّت عليها مدفعية البطاريتين المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة الغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترقت غابة صـغيرة وأقحمت الجبهة برصاصها السريع . وبعـد قليل التحق بالفصيلتين أورطة من الحرس ومعهما أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمر وصـول بقية آلاى حرس بسرعة مع أفراد الآلاى السابق فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناسترلى

سائراً على ما يرام ونجحت البطارية التى تحت قيادته فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (انطاكية) وهاجم ميمنة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه فى الهجوم الخفيف ضد قوات القلب .

وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى ، تهيأ للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التى كانت مسددة نحوه — وعمل على التقهقر السريع نحو بيلان . وانتهز الفرصة بالقناصة المصريين فهجم على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون المشاة تحرسها وصعد جنودهما اليها على أكمة تطل عليها وأسكتوها . وحاولت الآيات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام فصدتها نيران الحرس ، الشيء الذى جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبددت جموعهم .

وهكذا أخلى الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء ...

وبعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون فى تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتحرج مركز قلب الجيش التركى ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعاً بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ العدو بالفرار ، وتخلى عما بقى له من المواقع ، وتشتتت وحداته فى الجبال .

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الترك ، ووصل رماتهم ومعهم مدفعيتهم إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلوا أيضاً عن مركزهم وتقهقروا نحو الجبال .

وباستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأسر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيلا .

وهكذا فاز ابراهيم بالنصر، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقا ورائعا . وأعاد حسين باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .

وكان نشاط ابراهيم فى المعـركة ، التى قام بأظهر دور فيها ، باديا فى كل حركة من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده و إعجاب مواطنيه .

***

قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو فى مواقع الأتراك ما عدا أورطتين أمرتا بدخول بيلان وانفصـل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرّعة لاستكشاف الطريق إلى اسكندرونة .

وفى يوم ٣٠ يوليو احتل ابراهيم باشا بيلان . أما الخيالة فقد سلكت طريق اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمى . حيث عثروا على كميات مكدسة من الغنائم و ١٤ مدفعا وأصناف التعيين التى تكفى الجنود أربعة أشهر .

وقـد تردّد حسين باشا فى تدميرها . وكان وصـول فلوله الى اسكندرونة ، بعد قيام سفن الأسطول العثمانى بدقائق .

احتل ابراهيم ميناء اسكندرونة ، واندفعت الخيالة الى باياس آسرة نحو ١٤٠٠ تركى وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقـد أسرع نحو ادنه بعد اجتياز مضيق طوروس على رأس شراذم لا يفخر أى قائد فى الدنيا أن يكونوا جنـوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود ابراهيم ادنه وطوروس ، وكانت الأولى مفتاح الزحف على الأناضول . و بعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية .

و بعد هذا النصر، فأى الطرق السياسية يسلكها محمد على ! ؟

من الواضح أنه كان قبالته طريقان : فإما أن يعلن الاستقلال و يأمر ابنه أن يستمر فى الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنـه بالوقوف أملا أن ينال هدنة عن طريق تدخل الدول . ولم يخل أحد الطريقين من أخطار .

وستبين لنا مسيرة الحوادث ما سيكون بعد معركة بيلان .

احتل ابراهيم باشا طورسوس ، ثم دخل أدنة فى ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢ ، وفيها تلقى القائد من والده أمرا بالوقوف ، فقد بلغ الغاية التى كان يسعى إليها ، أى الوصول آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرسـل آلايين إلى أورفة وقـوة من فرسان العرب لمراقبـة الطريق من أرضروم وسـيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرسـل قوة إلى نهر الفرات لحمـاية جناحه الأيمن و بقى إبراهيم فى خطة الدفاع منتظرا أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

موقف انجلترا من نجاح إبراهيم :

و إلى هنا كانت السـياسة الإنجليزية أمام النجاح المصرى غامضـة . أمامها سبيلان أولها أن تدع محمد على يؤسس دولة عربية قوية لصدّ التيار السلافى الروسى ، والسبيل الثانى أن تحتفظ بتركيا وتقويها لتظل هى الحاجز بينما تهـدم الامبراطورية المصرية الناشئة ، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزا قويا على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليـه سياسة الإنجليز ؟ لقـد فضلوا الوقوف فى منتصف الطريق فلا تقاوم محمدا عليا ولا تظاهر السلطان خوفا من روسـيا . أما سياسـة إبراهيم فهى أخذ الأمور بالقوة و إيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يسـتأذن والده بالزحف على قونيـة ، ثم الآستانة ، ويرجوه فى أن يحمـل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد على إلى ابنه فى الثامن من شهر سبتمبر يقول :

" تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تسك المعدن وهو حام . وإنك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم يا ولدى أنا لم نصل إلى مركزنا الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفينى أن أحمل اسم (محمد على) خالصا من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يجللنى الآن . فكيف أستطيع ياولدى أن أتركه إلى سواه — لاياولدى إنى أحفظ اسمى (محمد على) وأنت يا ابنى تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى وعليك رحمة الله و بركاته " .

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحرا و برا .

معـــركة قونيـــة

الجـــولة الرابعـــة

الجيش العثمانى :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرهم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا،زميل إبراهيم فى حرب المورة،وزعيم حرب العصابات... ولكن أين الجيش الذى سيوليه قيادته، بعد أن افتقد جنوده فى فيافى الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشـيد باشا ، بطل ميسولونجى وأثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النـداء . ومضى إلى الآسـتانة ليضع حياته فى خدمة السلطان . وليعـدّ التدابير لجيشــه الجديد . وفى أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثـانى فى أربعـة أقسام : أوّلها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد فى أشقودرة حيث كانت الرئاسـة العليا للجيش ومقرّ الوزير ، والقسم الثانى مكوّن من ٢٠,٠٠٠ فى أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصرية بقيادة عثمان باشا والى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعـداده حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده فى منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صاتاليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركى فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثمانى فى مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددى لم يك كل شىء، فكانت تنقصه قوّة الالتحام، وكان كل قسم منــه يختلف عن الآخر فى الكفاءة والتــدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكرى أيضا . أما السلطان فلم يدّخر وسعا لبث الحماسـة فى جنوده الذين يتوقف عليهـم كيان دولتــه . وتوسل إلى ذلك بشتى الســبل ، من طوابير العــرض إلى مقابلة الضباط والتوسع فى إقامة الولائم للجند وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودّع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها — "انقذ الدولة فإن شكرى لك واحساكوك إذا أنت فعلت لا يكون له حدّ" .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها الى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا[(١)] هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

وبناء على المعلومات التى كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركى ، طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أوّلا بأوّل ، قبل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمرّ الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد على) أولهما يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسى ، وتتعارض آراؤهما . ويجهر إبراهيم على انتهاج خطة الدفاع ، بينا تجمعت قوّاته فى منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونة وكليكيا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذى يصل بين أدنة وقونية ، وأن هذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، مما دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم فى نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لابدّ له أن يستولى على هرقله (اركلى) وقد دخلها فى يوم ١٥ أكتوبر .

وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركلى عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفت خان وأولان كيشلى وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانيبا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قوّاته غير النظامية والبدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفت خان ، بينا يقتاد نفسه قوّة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفى ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفى اليوم التالى بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدّمته مضيق كولك بوغاز . ولما عبر وادى شفت خان اعترض التقدّم المصرى قوّة تركية فتسدّ الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبالة هذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شديدة كما أمر خيالته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك فى المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة

منظمة يبديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق و يواصل المطاردة عبر طريق اركلى (هرقله) . و يقضى الجنود ليلتهم فى أولان كيشلى وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمرود وتقدّم إلى الأمام لعبر طوروس و يصل إلى زانيب .

وفى ٢٥ أكتوبر احتل اركلى ، التى أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح فى هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، فى انتظار موافقة أبيه على التقدّم فى قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبدّدها سدى ، فقد حشد قوّاته التى كان معظمها يستجم فى جنوب طوروس .

وفى ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

فى ذلك الوقت، كانت الاتصالات السياسية مستمرّة بين الدول الأوروبية والباب العالى من ناحية، و بينها و بين محمد على من ناحية أخرى . وفى خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأى مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدّم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهدّد بها السلطان . أما الأب السياسى فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها و يترك النتائج للرأى العام فى الآستانة لعله يؤثر فى موقف السلطان . وفى الرسالة التالية موقف الرجلين ، حيث ردّ إبراهيم على أبيه فى الثالث من نوفمبر يقول :

"يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوّة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغنم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مذيعا خبر تقهقرنا ومن يدرى ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تثور سورية والأناضول علينا و يظل الغرض من تقهقرنا خفيا لا يفهم . و بناء على ما تقدّم لا ينبغى لنا أن ندع الفرصة

تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو . وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منه يا والدى أن ترسل آلايين من المدد فى الحال .

ثم تلقى إبراهيم من والده فى الثالث عشر من نوفمبر الأمر بألا يتجاوز قونية ، نظرا لأن التقدم إلى ما ورائها ، فى الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا .

وفى ١٦ نوفمبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذى كان قد أرسله إليه فى الثالث من نوفمبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول .

الى قونيــــــة

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من اركلى ، أحدهما فى اليمين يمر بالمدن : كيجيد — وكارابونار — وكاتانية — وايزميل — وقارخان ، وثانيهما فى اليسار يمر بكارامان — وكاسابا — وشوميرة . وقد أمرت القوات النظامية باتهاج الطريق الأول ، والقوات غير النظامية الطريق الثانى .

وفيما يلى أمر التحرك الذى أصدره إبراهيم لقواته النظامية :

يتحرك الجيش بالنظام التالى :

تسير المشاة فى قولين :

قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤

وقول اليسار من الآلاى ١٣ و ١٨

على أن لا يبتعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى ٣ فى الصف الأول .

والآلاى ١٤ و ١٨ فى الصف الثانى .

والمدفعية فى تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .

توضع مدفعية فى رأس القول على مسيرة الآلايين ١٤ و ١٨

يسير اللواء الخيالة الثانى فى المقدّمة على قولين — الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى ١٣ المشاة .

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه — متاع المدفعية — فالخيالة فالمشاة ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر :

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفى ١٧ نوفمبر غادر قول اليمين كارخان متجها الى شوميرة ليلتقى بقول اليسار . وفى هذا اليوم علم ابراهيم أن العدو أخلى قونية فى الليلة السابقة . فلم يبدد وقتا ، ونهض على رأس بعض قواته السريعة والمدفعية قاصدا قونية . فدخلها ليلة ١٧ وفى الصباح اتجه نحو آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والالآى الرابع الخيالة وبطاريتين مدفعية . وتلحق هذه القوة حرس المؤخرة التركى فى ضواحى ايلجون وتنزل به خسائر فادحة وتعود مسرعة الى قونية لتلحق بقوات ابراهيم .

يلقى ابراهيم نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلو مترا من حدود بلاده — وهى مسافة طويلة واستطالت خطوط مواصلاته ولا بدّ أن يحتاط لحماية جناحى جيشه — ولذلك أشار فى الحال لأحد قواده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدّى الطرق الى سيواس وأرضروم — مستعينا بالبدو . كما يأمر بحوق ابراهيم (يكن) فى السير على رأس الآلاى المشاة وبطارتين وخيالة غير نظامية من حلب الى مرعش عن طريق عينتاب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورط وبطارية قيصرية (وكان فى هرقلة) . كل هذه العمليات كان الغرض منها حماية

خطوط عملياته ضـد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حول منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حلمى بمغادرة أدنة لرقابة قوّات سليمان باشا التركية فى إيطاليا .

واتخذ ابراهيم باشا ضواحى قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعدّ قوّاته لقتال الأتراك ويدرّب جنوده على التمرينات فى المواقع ، التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات ابراهيم فى موقفه الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٣٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعا .

ومما يثير العجب حقا ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا الى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمال غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالآتى :

٥٤ أورطة مشاة .

٢٨ بلوك خيـالة .

١٠٠ مـدفع .

٢٠٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الافادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء ابراهيم الى عدّة معارك ، تنهك قوّاته ، وتؤثر عليه تأثيرا مرهقا ، لكنه كانت تحركه تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذالك العهد . وهـو الذى أشار اليه مرارا بالإسراع لمهاجمة قوّات ابراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل اليه

الفين من جنوده فى الاحتياط رفض السلطان رجاء قائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .

ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالى ، فزايل آق شهر ميمما صوب قونية .

١٨ و ١٩ ديسمبر

المصادمات الأولى

وفى يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركى فى قرية سيلة المنيعة[1] وكان يحتلها ألفا مصرى . فيمدّهم ابراهيم بسرعة بآلاى مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخيالة وخمسمائة فارس غير نظاميين و بطارية . وكانت النتيجة أن ردّت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسير وتركت ثمانية بيارق وخمسة مدافع وكمية وفيرة من العتاد .

وفى اليوم التالى ، هاجم المصريون حامية تركية كانت تحتل دوكز لوخان ، التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدّى الى لاديك . وقد كان المهاجمون من الحرس والخيالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم يضيع الأتراك وقتهم و بادروا فى التسليم وانضموا الى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصرية . وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

وفى مساء ٢٠ ديسمبر ، علم ابراهيم باشا أن رشيد غادر لاديك على رأس قوّاته فى اتجاه قونية لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعيين بقسماط لأربعة أيام ، وشعير لمدّة يومين .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا الى ابراهيم ، يطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فردّ عليه بخطاب جاء فيه : " لسنا نحن أنت وأنا بمسئولين عن الدماء التى تراق ، ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا به ولا سبيل الى مخالفة ما أمروا " .

---

(١) تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال غربى قونية .

معركة قونيـــة

٢١ ديسمبر ١٨٣٢

كان صباح يوم الجمعة، والضباب يخيم على ميدان القتال، ونزلت درجة البرد الى ١١ سنتيجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القـائدين مواقع جيش خصمه ، على أن ابراهيم امتـاز على " رشيد " بأنه درس أرض المنطقة التى ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ، ودرّب جنوده عدّة مرات على مناورات القتال مدّة كافية .

وقبل وصف توزيع قوّات الجيش ، يتعين علينـا أن نرسم صورة للموقع الذى سيدور فيه القتال :

تقع قونية فى ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبـال طوروس، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع، وقد امتدّ جزء من المدينة الى خارج هذا السور .

وكانت الأراضى التى سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، فى الاتجاه الشمالى الغربى، حيث امتدّت هضبة خصـبة يقطعها فى أماكن عدّة وديان عميقة ، وقد اتكأ الميدان فى الغرب على ميول تلال سـيلة ، وتحدّها من الشرق طائفة من المستنقعات ، وكان الطريق الموصـل بين لاديك والآستانة يمرّ بمنتصف ميـدان المعركة تمـاما .

وقد دبر ابراهيم خطته كما فعـل فى المعركتين السالفتين ، على المعـلومات التى وقف عليها عن جيش العدوّ ، ومعرفته التامة بأخلاق قائده منـذ تعاونا فى المورة، فضلا على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع ابراهيم أن " رشيد " سيلجأ الى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سـيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدّد مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .

استعرض ابراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت فى رأس الباشا خطتان : رأى إن هو هجم على ميمنة الأتراك فلن تكون النتيجة محمودة ، ذلك لأنها رابطت على سفح الجبل فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قوّاته فى تشكيل القتال ، وبدأت خطته تتبلور ، وقرر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا فى داخل المرمى ، فيوجهها الى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتدى اليها ونتيجة لتفكيره المتواتر ، الذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه فى قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك واثقا ١٠٠ ٪ بالنصر . ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة الى وكيله أحمد فوزى باشا ، فى الليلة السابقة للمعركة .

الجيش المصرى فى تشكيل القتال

وزع ابراهيم باشا قوّاته فى ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك :

الصف الأوّل بقيادة سليم بك المناسترلى يؤلف الآلايين المشاة ١٣ و ١٨ .

الصف الثانى بقيادة سليمان بك (سيف) يؤلف الآلايين المشاة ١٢ و ١٤ ، وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأوّل فى تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من الصف الثانى ، فى تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١ و ٢

والى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوّات الدلاة والبدو .

أما المدفعية — ٣ بطاريات فى الصف الأوّل موزعة فى اليمين والقلب واليسار :

بطاريتان فى وسط الصف الثانى .

بطارية فى الاحتياط خلف الحرس .

وكاحتياط ضدّ حركة تطويق قد يهدّد بها العدو ، أمر ابراهيم كل آلاى مشاة فى الصف الثانى أن يعين أورطة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين ، على مسيرة ١٥٠ مترا من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقد وزع قواته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح ، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منضم بالأورط ، وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، الى اليمين وإلى الشمال ، قوات غير نظامية ، وألبانيين ، ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدّل مدفعين فى كل أورطة مشاة ، وأربعة مدافع فى آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة ، وهى أضعف نقطة ، وتولى قيادة قوات القلب سعد الله باشا ، والميمنة خيرالدين باشا .

وقد وجدت وحدات العدوّ صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقعها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته ، فاستطاع ابراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى ، وكان يبعد عنه حوالى ٣,٠٠٠ متر .

ثم تقدّمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوات المصرية ، وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على المصريين ، فلم يردّوا عليها بالضرب ، الى أن تعرّف ابراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك ، وتقدّم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأول ليتفادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

ثم استهلت المدفعية المصرية عملها فى كل الجبهة — نيران شديدة متواصلة من الجانبين، و إحكام بالغ فى التسديد، حتى لقد زلزلت الأرض فى كل الجهات . وفى أثناء المعمعة ، كان يتنقل ابراهيم بين الجند مشجعا، ويثير الهمم قائلا :

"عفارم — عفارم — أيوه ياولد — ماشاء الله — عفارم" .

وصدفة اتجه الى بئر تقع على يمين الصف الثانى من قواته . وفى خلال لحظة انكشف فيها الضباب إذ زاد علما بمواقع الترك، وتبين نقطة الضعف التى يصيب منها الهدف — ذلك أن قوة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى وقد أخطأت القيادة التركية فى أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدّم . وحدثت بينهما ثغرة ، يبلغ طولها نحو ألف خطوة، جعلت الميسرة فى شبه عزلة عن بقية الجيش .

فانتهز ابراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الهجوم بقوّات الحرس والفرسان، خلال هذه الثغرة، ليخترق صفوف الترك . وبادر فعلا فأصدر تعلياته بتحرك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان، واجتازت البئر بقليل، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوما عنيفا ، وشدّت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك ، واكتسحتهم من الجنب . وكان الهجوم شديدا ، والضرب محكما . فاهتزت مراكز الترك هزا عنيفا لقسوة الهجوم ، واضطروا للتقهقر شمالا من غير نظام ، فى المستنقعات . وبذا هزمت ميسرة الجيش التركى .

ومن سوء الحظ ، لم يظاهرنا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية ، التى اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت نتفق جميع المصادر على ذكر «الحرس» واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلى والمدفعية والآلاى الثانى الخيالة .

دبرت هذه الهجمة على أفضل تدبير، وبينما كان يستعدّ الحرس للسير الى خان قديم لمح ابراهيم الى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعد أنه

الآلاى ١٧) يتقدّم فى تشكيل منظم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر ابراهيم الحرس بتغيير مواجهته وأن تنضم إليه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضد الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر، وأحاط به المصريون، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل، أراد أن يلم شعثها، ويبث الحمية فى نفوس رجاله — فقصد مواقع الجند، بيد أنه لم يفز بطائل . وضل الطريق فى الضباب الكثيف . وبينما يمضى فى طريقه وقع فى أيدى العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجرّدوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرا الى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر ابراهيم قوّاته الاحتياطية ، بعد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشاة ، للتقدّم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثانى وكان منتظرا أن ينضم إليها اللواء الأوّل ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب، وقام بمناورة فيما بعد على مقربة من الخان والمستنقعات، ثم ساعد الجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقا فى مناورته . فقد تابع مطاردته الخيالة الأتراك فى المستنقعات ، ووصل الى الخان ولحق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصل الآن الى موقعه فى الصف الثانى . وكانت نيران الشرنجية المصرية تنصب كالمطر بإحكام ، تساعدها قذائف المدفعية، على أجناب ومؤخرة هذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبه تشكلت فى هيئة مربع وباشرت العمل مهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعد وقت قصير ،

وعم الفزع فى قلب القوات التركية ، وفر الجند غير النظامى الى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكادت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثمانى ، الذى تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح فى مناورته ، مستعينا بقوات الميمنة ، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارعة التى نفذها ابراهيم فى الحال ، أخرت ، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء ... والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآلايات المشاة الثلاثة التى فى الصف التركى الأول وخيالته تكون منها خطا منكسرا للإحاطة بالميسرة المصرية ، التى كان قوامها آلايين مشاة وآلاى خيالة الصف الثانى — وكان الطريق الرئيسى الى الآستانة يسير الى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذى هددهم برباطة جأش وثبات . وفى الحال أجريت العمليات الآتية — أسرعت بطارية مدفعية الصف الثانى لمعاونة بطارية الميسرة فى الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها فى القلب أو فى الميسرة نيرانها صوب الأعداء — فحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة فى الضرب والقتال ، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشتيت وحداتهم فى السهل وفى قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهدا آخر علهم يكسبون ظفرا — فتحركت قوة من خيالتهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل ، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت الى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشتت شملها .

انتهت وقعة قونيــة بهزيمة قوات الامبراطورية العثمانية ، بعــد أن استطال القتال فيها سبع ساعات . إذ بدأت فى الظهر وانفضت بعـد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالآتى :

٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش و بينهم عدد موفور من الضباط .

٣٠٠٠ قتيــل .

٤٦ مدفعا وعدد كثير من الأعلام العسكرية .

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفى الساعة الثامنة والنصف مساء . عاد ابراهيم باشا الى قونيــة ، ليلقى تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال ادوار جوان (Gouin) عن معركة قونية : "إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين ، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا و بسالة وخفة " .

نتــائج المعركـة :

رأينا المعركة تنتهى بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التى تفضى الى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقــد السلطان جيوشــه التى اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه . يلتفت يمنة و يسرة فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منــذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم ابراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ، و يواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، و يخضع السلطان محمــود و يملى عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية و يعبر الدردنيل ، و ينزل قواته فى الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط ابراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقــدم على

التقــدم الى العاصمة الفتانة ، ليصل إليها قبل قدوم القوات الروســية ، التى جاءتها فى ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣ (١) .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى يتبوأ محمــد على عرش آل عثمان ، مكان السلطان الذى كانت رعيته تنظر إليه كحليف للروس ، بينما كانت فى صميمها ترنو حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التى أوقعها السلطان فيها ولنسأل أنفسنا سؤالا — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد على ... وهــو فى نظر بعضهم ذلك التأثر الذى اعتدى على الخليفة ، وأنزله بقوة السيف ، ونزع السلطة منه .

والجواب على ذلك نراه فيما اعتاد عليه البشر — مســلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف . وما كان محمــد على إلا عبقريا من طراز الرجال المصلحين . بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصــلاح السلطنة كلها . وكان جديرا بالقيام بهذه المهمة ، وكاد يصل الى هدفه لولا تدخل الدول ، التى كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكى يرثوها بعد القضاء عليها . وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان ، وذهبت الامبراطورية العثمانية فى عداد التاريخ .

سياسة التردّد بين محمد على و إبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهرا فى قونية ، يعيد تنظيم قواته ، عقب انتصاره الرائع ، ولم يستطع مواصلة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه . وقد كتب لأبيه خطابا فى ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

" أستطيع أن أصــل إلى الآستانة ومعى محمــد رشيد باشا ، وأســتطيع خلع السلطان حالا ، و بدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيــذ هــذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تســوى إلا

(١) انتهت معركة قونية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢ .

فى استانبول فالواجب أن نذهب الى استانبول حيث نملى إرادتنا وأنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لاتوصلنا إلى أغراضنا و إذا أنت رميت من الاشاعات التى تذيعها الى غرض سياسى بأنا نهـدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقـد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعـد وصولهم إلى جلمجة بضاحيـة إستامبول . فالواجب اذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعـة على بحر مرمرة وجعل هـذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئـذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قـد تقضى الى عزل السلطان . و إذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل الى إبرام صلح يحقق أمانينا وأننا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منـك لكنت الآن على أبواب استامبول . و إنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى اصدار تلك الأوامر الخ؟ .

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ...

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبـل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد ...

وصل هذا الكتاب الى محمد على، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه الى شطرين . فوصل الى كوتاهية فى ٢ فبراير ، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارص ، وصار على مبعـدة ٥٠ كيلومترا من الآستانة .

وكان ابراهيم عندما زحف من قونية الى كوتاهية قد كتب الى ابيه الخطاب التـالى :

” اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقـل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى

استامبول ليست فيها حركة استعداد للمقاومة وهـذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هـذا الصلح أرسل إليك خليـل رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليـه علمى الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشئوم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للأ زمة لأنه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام و يعمل لها . كما كان فى المـاضى وللجور على هذه الأمة الاسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهـذه الأمة و بحق غيرتنا الدينيـة أرى من الواجب المحتم علينا لا العمـل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبـل كل شىء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع الى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشئوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت علىّ بأن أوربا تعترضنا قلت لك أننا لا ندع لها الوقت للتدخل و بذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبـل أن يعرف و بذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع — و إذا كانت أوربا تغتنم الفرصة لإشباع مطامعها من هـذه الدولة فأية تبعـة تقع علينا . وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

... ... ومع الاسـتعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقـدم الى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن لتلقى شىء منك أو من استانبول يحرم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هنـاك أرسل إليك رسولا بما يكون قـد قررناه تبعا للظروف " ...

وكان إبراهيم على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف عن الزحف حيث يدركه خطابه هو يعـلم أنه ليس للسلطان جنـدى واحد

فى طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان ارسل خليل رفعت باشا اليه (محمد على) ليتفق معه .

وقبل أن يصل الى بروصة كما اعتزم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا الى اسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالى . يحمل الى محمد على عفو السلطان عنه وولايته عكا وملحقاتها ، ولكن لصداقة محمد على له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد على ولاية سورية وأدنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لنزاعهما .

ووصل الى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالى ليبلغه أنهم أرسلوا الى والده رسولا للاتفاق ، والثانى رسول الجنرال مورافيف ، والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة الى القتال . ويتضح رأيه بما كتبه لأبيه[1] فى الثالث من فبراير :

"أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شيء فى المناقشات التى تدور بينك وبين الرسولين مورافيف وخليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن تطالب اضاليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن يضم الى مصر — إن كان ذلك فى الإمكان — تونس وطرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شيء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكى توطد مركزنا وتحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة

---

(١) كتبه فى كوتاهية بتاريخ ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ — ترجم بتصرف فى الأسلوب .

الخبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المال . فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء الباهظة ولا نجد خلاصا إلا بالاستقلال . أما السبب الذى يدعونا لطلب أضاليا وأدنة فهو شدة حاجاتنا الى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلترة منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ الى النمسا التى أزعجنا رفضها إزعاجا لا نستطيع نسيانه . وهل من حاجة بى لأبين شدّة حاجتنا الى الخشب . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثا كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركى كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب .

أما ضم قبرص الى مصر فهو أيضا لا مندوحة عنه . لسببين : الأول للمنفعة الكبيرة لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق الى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لاتنفع شيئاوهى كستارة بعيدةجداعن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام انظارك .

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية الى كوتاهية وقره حصار قد وصل إلى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا ولجأ إلى أصدقائه الروس يستنجد بهم . ومن حسن حظه أنه كان قد وصل لابراهيم أمر أبيه بوقف التقدّم . وكان ابراهيم هدّد بروسه كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبدأ الدول تعدّل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ انجلترة تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها الى الهند .

وتتضح سياسة انجلترا هذه من الرسالة التى كتبها بالمرستون إلى ويليام كامبل السفير الانجليزى فى كابل ، وذلك بعدما أذيعت شروط الاتفـاق الأولى بين تركيا ومصـــر .

"إن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهمـا الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثبيته فى ولاية مصر دائمـا — وقـد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن فى ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف الى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند، فهى أفضل من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد، نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فإذا استطاع أن يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنهـا ضعفت عندما رأت جيشا روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وانجلترة واستمرت الدسائس الدولية تعمل فى الخفاء ضـد محمد على للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته ، واذا بالباب العالى يرضخ لمطالب الوالى العظيم !

فأثرت هـذه المفاجاة على خصومه . وأخيرا أبرم بين الطرفين اتفاق كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . وبهذا الصلح ولى محمد على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليـا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة، ورفرف العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

وبذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول، التى كانت تهوى الصيد فى المـاء العكر . وكسب محمد على ثمرات النصر الحلوة . وبرهن للملأ أنه رجل

صريح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للمندوب الفرنسى قائلا :

"إننى رجل سلام لا أهدف إلا لشيء واحد هو أن أقف أيامى الباقية لاسعاد البلدان التى أحكمها ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا — فأجيب بأننى أتوسل لأوروبا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى"[١] .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣[٢]

الوحدات	مصر	بلاد العرب	السودان	كريت	سورية	المجموع
٢٢ آلاى مشاة	١٧٣٥٢	٩٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٥٧٧	٧٠٣٣٧
٣ آلاى مدفعية	٤١٠٢	—	—	—	٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١	—	—	٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠	—	—	—	٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية[٣]	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤	—	١٥٥١	٣٤٣٥
بدو	—	٦٦٨	٦٠٤	—	٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجموع	٢٧٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر الى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكونت ممثل فرنسا فى مصر إلى الدوق (Broglie) وزير الخارجية الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣ .

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٨٠٠

و إلى جانب هذه القوات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨

قواد البوليس المحلية ٦٧٩٩٨

جنود البحرية ودور الصنعة ٢٥١٤٣

صناع وعمال فى خدمة الجيش ١٩٣٩٣١

وقد كانت معظم الوحدات موزعة فى حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوات النظامية فى عام ١٨٣٣ — ٧١و٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١٩ و ٧١ ، أكثرها موزعا فى أدنه وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حربين

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت إتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمدة سنين قلائل ، استعد الطرفان فى خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالى لا تنفك تنفث الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل . فلما ضاق محمد على ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعتزم على إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية ، وحدثهم بعزمه ، كما سيأتى :

الإدارة المصرية فى الشام :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر فى ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت ... إدارات منظمة ، تعنى برفاهية سكانها ، عادلة فى أحكامها ، فرتبت فى الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشئون المالية . بل هيأ إبراهيم نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب الدينية ، مثل هذا التعديل فى أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستثقلون الإدارة المصرية ، ويتمنون

عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظرا لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم جاه أو سطوة، بعد أن توطد الأمن فى ربوع أوطانهم، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة على النظم المنتهجة فى مصر ، وعممت تربيــة دودة الحرير ، واستخرجت بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التى كان يلوذ بهــا الثائرون وقطاع الطرق . وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء، كما رخص للدول الأجنبية فى إرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله [1] .

ثورة فلسطين (١٨٣٤) [2] :

وسوف نمر سراعا على أهم الأحداث التى مرت بفلسطين، لعلاقتها بواجبات الحاميات العسكرية ، التى لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . و بعبارة أخرى الدوافع التى بثت فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد .

(١) الدعايات السيئة التى اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم، ووكلاء الدول الأوربيــة ، وقد كانت لهــا نتائج وخيمة فى مقاومة الحكم المصرى والعمل على تقويضه ، ولا سيما فى نابلس و بيت المقدس ثم فى دمشق وحلب — وكان الدروز ، إلى حد ما ، اللبنــانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا كبيرا فى مناهضة باشا مصر . و يتبدى أن الشاميين كبعض المصريين — فى صورة عامة — لم يروا أعمــال محمد على فى صورتها الحقيقية إلا بعــد وفاته وانقضاء زمن طويل . وليس هناك أدنى ريب فى أن الأب وابنه كانا متقدمين على جيلهما بعشرات السنين .

---

(١) الأستاذ محمد كرد على — الحكومة المصرية فى الشام ص ٢٢ — ٢٤

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية فى قمعها — مجــلة الجيش المجلد ٤ العدد ٤ ص ٤٧٥

تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الجزار ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأملونها ، أو فقدوا الجاه والمال بعدما نظمت أحوال البلاد — فجرت عدة وقائع بين المصريين والعسكاريين والصافيتيين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وقد نكل بالكثيرين من زعماء البلاد ولا سيما آل طوقان وأعيان الأتـــراك .

وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك وما جره نظام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشـــام .

وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الالزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيا . وأضحوا يعدّون التجنيد من باب إلقاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أفضى نظام التجنيد ، الذى ثاروا ضده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

وبالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(ا) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقمعه وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقد اشتدت الثورة فترة مما جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أخمده الأمير بشير الشهابى .

(ج) فتنة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحلب وأنطاكية وبعلبك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرقى اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مرية فى أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى إبراهيم فى قمعها كثيرا من الشدّة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ، بتعريض نفسه للمخاطر بجرأة لا يتصورها عاقل . وعلى هذا قيل عنه أن أبا خليل — وهذه هى الكنية التى يكنيه بها الشعب — محجب بحجاب ضد الجروح فعله محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفض ردائه فيتساقط منه الرصاص .

وقبيل آخر العام ، تمت عملية التجنيد فى سورية ، وتم النقص فى جميع الآلايات المعسكرة فيها .

ثورة الدروز فى حوران (١٨٣٦ — ١٨٣٨) .

ولم يستتب الأمر بعد هدوء الأحوال فى الشام ، حتى شبت ثورة الدروز فى حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم لحاجته إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم فى حوران (نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التى قاد واحدة منها إبراهيم بنفسه فى مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى مجلة الجيش (١) ونوجز أهم حملات هذه الثورات الثلاثة (٢) فيما يلى :

(١) حملة على أغا البصيلى ، رئيس الهوارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسان . وقد فاز فى مستهل الأمر ضد الثوار فى بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال وانقضوا على رجاله وأبادوهم جميعا .

---

(١) مجلة الجيش — المجلد الخامس — العدد ٤ — ص ١ — ١٣

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا نعدها بين الحملات الثلاث الكبرى .

(٢) حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤,٠٥٠ مقاتل من المشاه والفرسان والمدفعية — قام على رأسهم فى ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا فى عدّة معارك ، خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجتها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المضربون أكثر من أربعة آلاف جندى وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين جملا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراجى بك .

(٣) قبالة انتصارات الثوار ، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار فى منطقة اللجاه (أغسطس ١٨٣٨) .

قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لاحصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروبا مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرد المصريين من بلاده .

وإبان انشغال المصريين فى هذه الحرب ، كان الباب العالى يعمل ما فى وسعه لتخليص سوريه وأقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ودّ السلطان وفعلا أوفد فى عام ١٨٣٧ مندوبه صارم ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودّية ، ولكن أخفقت المحادثات ، ولم يتفق الطرفان على شروطهما .

حيال عناد الحكومة العثمانية ، اعتزم محمد على — كما سبق أن أورينا — إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايو عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر [1] .

---

(١) كادلفين وبارو — سنتان من تاريخ الشرق — جـ ١ ص ٢٢ و ٤٦

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباءت مساعيها بالفشل ، لأن انجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد على ، واسترداد مصر أيضا من حوزته .

ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخرا ، بالرغم عن أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيرا ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الإلحاح جد كثيرة — كذلك تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوربية الشىء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم . لأن أباه لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال ... قال :

"لا بد أنك تذكر حين وقفت بجنودى فى قونية وكتبت أطلب إليك بإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون "محمد على" وكفى . مع أننا كنا منتصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال" .

وقد كان إبراهيم على حق . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعدما قطعت شوطا من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولاتهم سدى بعدما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوربية تعمل مخلصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، للتملص نهائيا من سيادة الإمبراطورية الهرمة ،

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشه ، بيد أنه شغل بمحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض فى وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم فى تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال — ولم ييأس السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش ، و بدأ بادخال التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية بعدما فهم زعمائهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى . و بالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم فى مذبحة كبرى . فارتاحت الدولة من شرورهم . ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، و يعدّل القوانين ، التى لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يجدّد فى أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التى لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوربا التى هدفت إلى القضاء على آل عثمان ، أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها ولا قوة .

كانت الحروب المتتالية التى شنتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس وسطوة ، التى كانت تقترب يوما بعد يوم من مقبرتها . ومع هذا الانحلال التدريجى لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها و رجالها فى الولايات العثمانية وفى طليعتهم محمد على باشا فى مصر وعلى باشا والى يانيا .

كانت هذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها و بين محمد على . بلاد أنهكتها الحروب المتتالية ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى عدم التحوّل عن القديم البالى ، وغباء رجالها الذين انقادوا فى سياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . فعجلوا بدمارها — وجيش جديد بدئ أخيرا فى إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من الانكشارية

معركة نزيب

الجولة الخامسة

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ :

تألف الجيش العثمانى من حوالى ٨٠ ألف مقاتل و ٢٠٠ مدفع حشد معظمها فى منطقة ملطية بشرق الأناضول . وكان هذا الجيش أنظم وأقوى الجيوش العثمانية منذ أن تخلصت تركيا من الجيوش النظامية ، وتوفر عتاده الحربى وأعدّ منه الشيء الكثير فى ملطية وديار بكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سرعسكر باشا الجيش فى آسيا ، بعد وفاة رشيد باشا فى عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمان برياسة فون مولتك الذى حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذى وضعت فيه الدولة ثقتها للقضاء المبرم على الجيش المصرى ، قد منح رتبة السرعسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد فى عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقى اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو فى السابعة عشر من عمره ثم التحق بخدمة السلطان فى فرقة الـ (Hahigi) حيث ارتقى سريعا . وما أن شكل الجيش النظامى حتى تقدّم للخدمة فيه بجندى بسيط فى الخيالة ، وبجدّه حالفه التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشى فى خلال الحرب الروسية التركية ، إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منه . وحدث أن أنعم عليه برتبة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام قلائل . وقاد الحملة العسكرية التى وجهتها تركيا لإخماد الثورة فى ألبانيا . وعلى أثر إتمام مهمته ، عينه السلطان حاكما على إقليم سيواس بالأناضول . وفى غضون اضطلاعه بمنصبه أمره الباب العالى بإخماد ثورة كردستان ، فأورى فى ظل معاركها نبوغا ونظاما وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له إخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليه السلطان بنيشان الافتخار وترقيته إلى رتبة سرعسكر الجيش فى آسيا .

وإلى جانب مزايا هــذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق فى تفكيره ، بعيد النظر فى تدبيره . لم يك جامدا شأن الكثيرين من قادة العثمانيين فى القرن الثامن عشر وأكثر من ذلك كبير القلب ، نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك أنه كان محبوبا عند الأهالى والجند ، عفوفا عن الدسيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترما للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحا على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . دينا لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الانخراط فى القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم فى المــدارس الحديثة الحربية فى أوربا ، وفى طليعتهم محمــد رشيد بك الذى صار فيما بعــد قائدا ومديرا عاما للمدفعيــة التركية وكان من المقــربين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيسا لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا فى الكيد له عنــد السرعسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظنا منه أن عين عليه لينقل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زايل الجيش التركى قاعدته فى ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الإسعاف الطبى ، والمستشفيات العسكرية !

ويظهر أن التجارب والمحن التى مرت بأحــوال الجيش العثمانى ، وهزائمه المتتالية ، فى معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالى منها شيئا كثيرا ، ولا سيما من ناحية تدخله فى الأمور الفنية الخاصة .

وإلى جانب الجيش العثمانى النظامى ، كانت هنــاك وحدات من الاحتياطى غير المــدربة تدريبا
الوحدات المنظمة .

وفيما يلى توزيع وحدات الجيش العثمانى (١) :

قيادة عزت محمد باشا	أنقــــرة	١٢,٠٠٠	٤	بطاريات مدفعية	
« على باشا ومعه فيشر	قونيــــة	٢٠,٠٠٠	١٠	«	«
« حافظ باشـا	ملطيــــة	٤٢,٠٠٠	٢٤	«	«
« عثمان باشا	قيصــرية	٥,٦٠٠	٣	«	«
« على بــــك	(موزعة فى مناطق شتى)	٧,٥٠٠	١٢	«	«

٨٧,١٠٠ جندى ٥٢ بطارية

الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية

وعلى نقيض حال الدولة التركية ، استمــرت مصر ، بزعامة مصلحها الكبير ، فى نشاطها الصناعى والعلمى والعسكرى ، بالرغم من الثورات والفتن ، التى شبت فى مناحى الشام وفلسطين و بلاد العرب ، والتى أنهكت الجيش خمسة أعوام طوال ، وأن طموح الباشا ، ورغبته فى المحافظة على مركز دولتــه (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعــة ممتلكاته ، جعلت محتما عليــه أن يعتمد على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليهـا ، والسـير بسفينته وســط عواصف دعاية الحكومة التركية والبريطانية فى كل مكان تدين بالولاء للباشا ، وفضلا عن ذلك كان يرى محمــد على استعداد الباب العالى للقتال ، والعمــل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يجف المداد الذى كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيــه عقيدة " إذا أردت الســلم فاستعدّ للحرب " (Si Vis Pacem par Bellum) .

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هنـاك أيضا ما يخفف من ويلات الحرب و يطيــل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ،

(١) ذكرت " الجورنال دى ديبا " بتاريخ الاثنين ٣ يونيه سـنة ١٨٣٩ نقلا عن " جازنت دوجسبورج " أن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحا ، تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظرا لكثرة الفتن والثورات التى عمت فى داخلية الشام وفلسطين ، اضطر ابراهيم الى توزيع قوّاته من البحر الميت الى طوروس ، ومن الساحل الى الفرات . ثم التمس من أبيه أن ينجده بامداد قوى . فأرسل اليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظاميا وثمانية آلاف غير نظامى معظمهم من الفرسان و ٢٥٠٠٠ من البدو وقد ألحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى .

وعلى العموم ، كان الجيش المصرى مركبا من وحدات مارست الحروب والمناورات ، منذ عشرين عاما ، فى نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية ، ولا دهشة فى ذلك ، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التى قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة فى أيديهم ، أو خلفهم فى مستودعات ونزلات ، الى جانب مخازن الجيش فى اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنازة الى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب :

(١) المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات (١ و ٢ و ٣) بقيادة الفريق عثمان باشا	٨٦١٧
اللواء الأوّل — آلايان (٢ و ٢٢) بقيادة أمير اللواء سليم بك	٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان (٤ و ١٢) بقيادة أمير اللواء ابراهيم بك	٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان (٦ و ١٨) بقيادة أمير اللواء حمزة بك	٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان (٩ و ١٤) بقيادة أمير اللواء عمر بك	٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات (١٠ و ١١ و ١١) بقيادة أمير اللواء فرحات بك	٧١٦٥
مجموع المشاة	٣٧٦٧٣

(ب) الخيـالة :

لـــواء الحـــرس — آلايان بقيادة الفريق أحمد المنكلى باشا	١٧٣٨
اللواء الأول الخيالة — آلايان (١١ و ٢) بقيادة أمير اللواء رستم	١٦٧٩
اللواء الثـانى الخيالة — آلايان (١ و ١٣) بقيادة الجوخدار	١٧٢٨
اللواء الثالث الخيالة — آلايان (٦ و ١٠) بقيادة ابراهيم بك	١٦٣٠
مجموع الخيالة	٦٧٧٥

(ح) المدفعية : بقيادة أمير اللـواء جعفر صادق بك

مدفعية الحرس : بقيادة أمير الآلاى خالد بك	١٠٦٦
الآلاى المدفعية الثانى المشاة : بقيادة أمير الآلاى محمد العنتبلى	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأول الخيالة : بقيادة أمير الآلاى حاذق بك	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثـانى الخيالة : بقيادة أمير الآلاى زكى بك	١٠٦٧
مجموع المدفعية	٥٦٢٥

المجموع الكلى للجيش ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجنديا بصحبتهم ١٦٢ مدفعا .

الحوادث الممهدة لمعركة نزيب

(سنة ١٨٣٩)

لكى نقدم صورة واضحة للعركة، مستكملة المعالم، يتعين أن نقفو أثر الأحداث التى أفضت الى القتال الحاسم .

(١) حصنت القيادة المصرية مضيق كولك، أحد مضايق طوروس، وهو منفذ الزحف من الأناضول الى سورية، وزاد عدد الحاميات فى ولاية أدنة .

(٢) لما علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين، رام تلاقى الزحف من هذا المضيق . والقيام به من منطقـة أورفا وديار بكر، حيث لا تواجهـه مضايق أو مسالك وعرة أو جبال .

(٣) اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فحوّل ابراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشه الى حلب ، ولتستمر فى مراقبة طلائع الجيش التركى فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية[1] .

(٤) عهد القائد حافظ باشا الى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ وفى الحال نهض ابراهيم باشا ببعض التحركات الهامة لتحاشى الخطر .

(٥) فى منتصف ابريل : بدلت وحدات الجيش التركى مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ، وتجمع لواء اسماعيل باشا فى بيره جك (٢١ أبريل) . و بعد أيام وصل هذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدّم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطىء الأيسر للفرات) .

---

(١) ليس المقصود بكلمة كاز المدينة ذاتها وانما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المسائل فى نهر الفرات وخليج اسكندرونة ، وهى تعرف بنواحى بيره جك . و يتسنى الوصول من هذا الموضع الى خمسة مواضع مهمة تقع فى البلاد التركية :

(أ) يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عنتاب ومرعش والمنتهى الى الشمال حتى شمل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

(ب) و بطريق آخر يتجه صوب الغرب ، مارا بكليكيا وموانئها ، حتى غرب الأناضول .

(حـ) يتيسر الوصول من طريق حلب — الأردن — فلسطين الى مصر ، و يعرف هذا الطريق المنند التجارى أو طريق الحرير .

(ى) و يصل الطريق الذى يمر باستقامة نهرى دجلة وفرات والمتمة نحو الجنوب الشرقى الى العراق فإيران والصين وما اليها .

(هـ) و بواسطة ديار بكر يتهيأ الوصول الى القوقاز وأذربيجان .

من هنا تتجلى أهمية بيره جك العسكرية ومضيق كاز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربته ضد ابراهيم .

وفى ذلك الوقت ، اعتدت قوة كردية على حيوانات كانت ترعى للمصريين ، ولكى يجتنب ابراهيم الصدام وتقهقر إلى حماه ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ! وبالرغم من الضغط السياسى على الباشا : ارتأى أن يستعد، وسارع فى إرسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

(٦) فى الثانى والعشرين من شهر مايو، عبرت طلائع الجيش التركى الفرات ووصلت إلى نزيب[1] داخل الحدود السورية . واحتلت العداوة التى بين نهر الفرات وأحد أفرعه الصغرى المسمى ساجور[2] وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية تل باشر واقترفت فيها الفظائع .

(٧) وفى مساء اليوم التالى،أوفد إبراهيم — بعد علمه بتقدم الترك — ١٤ رسولا إلى مختلف مراكزه يحملون فيها الحشد العام فى حلب . وفى صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنبأهم بما اقترفته قوات السلطان وطلب معونتهم . وفى اليوم التالى أرسل إلى أورول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاى معجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أولا بأول . وحشد ابراهيم معظم وحدات الجيش فى معسكر بأورطة ، على مبعدة ثمانية كيلومترات شمالى حلب، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت إمرته ١٨ ألآى مشاة و١٦٠ مدفعا .

أما الأتراك فاستمروا فى تقدمهم نحو مزار داخل الأراضى السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى القهقرة فى تجاه توباش كالأوامر التى صدرت اليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

---

(١) تقع نزيب على الطريق الموصل بين بيره جك واسكندرونة وموقعا غربى بيرة جك .

(٢) يقع نهر ساجور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب الى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر وتركيا فى ذلك الحين، والمرسوم فى اتفاقية كوتاهية .

(٨) لم يستطع إبراهيم قبالة هـذه الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين . ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة الآى خيالةو١١ بطارية مدفعية خفيفة ،واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة . و بينما كان ابراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشر، التى احتلوها منذ أيام ، ثم استحوذ الترك على عينتاب ، بعد اخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش الأتراك بالأراضى المصريه فـوق ما كان مرتقبا . أرسل إبراهيم الى أبيـه يصف تطور الموقف .

(٩) بعـد ٤٨ ساعة وصل الى ثغر الإسـكندرونه كابتن كابيه الذى بعثه المـارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة الى محمدعلى باشا يقول له فيها أنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . و بعد أن قـدم (١٤ يونيو) كابيه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) الى مركز قيادة إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولا تمام مهمته التى يأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل الضابط فولتر رسالة أخرى للسرعسكر حافظ باشا . وصل كابيه إلى طرابلس الشام وفى ٢٤ أخذ طريقـة الى حلب يوم ٢٦ ، عقب انتهاء المعـركة الكبرى وهزيمة العثمانيين فى نزيب .

(١٠) دفـع ابراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالت مقاومة الأتراك بسهـولة ، واستخلصت طريق حلب وأمنتـه ، فى ٣ يونيو بدأ ابراهيم فى مراقبـة الطريقين المؤديين إلى عينتاب ونزيب . حيث كانت منطقة الحشد التركية .

(١١) فى الخامس من يونيـو ، استدعى ابراهيم حاميـة عينتاب ، ولم يترك بها سوى كتيبة واحدة ، لحماية قلعتها . و بعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك الهنادى وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك إلى توزيل .

وفى يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا على رأس قوة ، للاستكشاف ، مؤلفة من خمسة آلايات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيدها المدفعية . فقابلته الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصغير واتجهت نحو العدو فى قولين . وتبادل الطرفان النيران ، واشتبكت قواتهما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التى كان فى انتظارها بالرغم من تحكك حافظ باشا .

(١٢) وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم فى يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة و إقدام وأملى ألا يفوتكم فى هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم — أما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدى رأيا صريحا .

وفى رسالة لمحمد على (فى ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نوقفه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبة منا فى عدم معارضه رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا فى بلادنا وزادت الأمور تحرجا وتلك حال ترغمنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تلق علينا التبعة — فنصيحتى اليك أن تبادر عند وصول رسالتى الى يديك بالهجوم على جنود العدو

الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى باخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر فى تقدمك الى مالطيه وخربوط وأورفا وديار بكر .

وهذا أمر صريح للهجوم .

(١٣) وفى يوم ١٨ يونيــو زايل الجيش، تحت امرة سـليمان باشا ، معسكر با أورطة، ووصل فى اليوم التالى الى توزل، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهــر ساجور الكبير . وفى يوم ٢٠ سارت الى قرية مزار (١) فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها فى الساعة العاشرة صباحا . وألفت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندى غير نظامى — ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة، بالانتقال الى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية فى الانسحاب الى نزيب .

وما كاد الجيش المصرى يبرز على المـرتفعات (جنوبى مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركى قد انسحبت الى نزيب تاركة خيـامها وعتادها ، فغنمتها الجنود المصرية، ودخل ابراهيم مزار فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولابدّ من استكشاف الأراضى، فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال فى هذه الأيام .

وحالمـا استقر المعسكر، حاول سليمان باشا الفرنساوى أن يستكشف الأراضى وقوة معسكر الأتراك بيـد أنه استحال عليـه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدوّ .

وكان ابراهيم باشا ينتظر بفروغ صبر عودة سليمان باشا ، إذ كان قد قرر القيام بهجوم فى الغد، وكان سليمان لا يوافقه . وعلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما

---

(١) تقع مزار فى الطريق الموصل الى قرية نزيب .

على القيام فى الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا فى الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما (F. Perrier) وأراجو وراحا ليرتادا الأراضى على ضفة نهر مزار اليمنى، لكشف طريق يسمح بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركى وتحويل مواجهته الى الخلف، إذا لم يتسن مهاجمته من الأمام .

(١٤) وفى يوم ٢١ يونيو، عبر الياوران كبرى مزار [1]، وتتبعا مجرى النهر فى اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن الطريق كثيرا من العقبات يتهيأ تذليلها بسير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى ابراهيم باشا جواده وسار مع ١٥٠٠ بدوى الى المعسكر التركى لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفى قيادته أربعة آلايات خيالة وبطاريتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية، وتبادلوا النيران فترة، ولم يفز ابراهيم، فعادوا الى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على ابراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركى بوساطة السير جنبا، والتقدم الى خلف الصفوف التركية، وبذلك يكرهونها على الدوران، وترك الموقع المحصن، والقتال فى الأرض المكشوفة .

(١٥) وفى الصباح المبكر من ٢٢ يونيو، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار الى الجنوب واجتازت فى الحال بعض وحدات المشاة قنطرة مزار، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للمراقبة . ولبثت الخيالة فى مكانها مكونة ستارا لتخفى — على قدر الإمكان — عن العدو منظر الحركة وشرعت المدفعية فى عبور قنطرة مزار، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان استعدادا للسير فى ترتيب القتال . ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم وابتدأ الزحف .

---

(١) كان معهما آلاى خيالة .

ولم يتخذ الجيش فى بداءة الأمر خط سيره الحقيق ، بل انحرف كأنه يبغى حلب وكان سليمان باشا يشرف على سير القولات حتى لا تحدث تغيرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيــه قوات كثيفة تربك هذه الحركة ولذلك استنفد هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة فى قرية كورديكالا عاود الجيش السير ، فظهرت وحدات تركية على اليسار ، على مدى ٣٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفى الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيـالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفى الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة وأكمة تقوم على يمين القولات فأسرعت بطاريتان فى احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى ، التى كانت تفد تباعا .

ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره ، وفى هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريبا ، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعينى كل جندى : وهى ادارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعة التى أعدّها . ولا ندرى لمـاذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم وقد ألح الضابطان البروسيان مولتاخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبأ بنصيحتهما فعرضا عليــه أن يتراجع الجيش التركى الى معسكره الأصـلى فى بيره جك فـلم يعمل برأيهما . وكانت الوحدات التركيــة التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

(١٦) وكان الليل قد أقبـل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البـدو وأخبروا القيادة

بأنه ليس للعدو أثر فى هذه الجهة كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه فابتهج ابراهيم لدى سماعه هذه الأنباء السارة وفى الحال أسرع على رأس خيالته ووصل الى الكوبرى وجلس على حجر، وأمر باحضار شبكه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يفضى الى الكوبرى خوفا من الضغط والازدحام وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ مترا يبدأ فى الانحدار بشدة و يأخذ فى الضيق باستمرار الى أن يصل الى الكوبرى — وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود — وكانت مياه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيو) شحيحة مما سمح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت ضفتاه غير مرتفعين .

و بالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الوحدات ، واختل النظام وكان فى استطاعة الأتراك أن يطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق و يقلبوا الخطة الجريئة رأسا على عقب بيد أنهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمر توالى مرور الجند على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاه فالمدفعية إلى الساعة الثانية صباحا . وقد أفادت القيادة من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقتها العدو . وبمجرد انتهاء وصول الوحدات ، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة يمينها و يسارها يرتكزان على النهر ، ووضع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأمامية فى تشكيل بطريات فى كافة الاتجاهات ، وخلفها ثلاثة صفوف مشاه ثم الخيالة والعتاد ، ثم ما تبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

(١٧) وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للمعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته ، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين . وطلب

إليهـم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمـة رئيس هيئة أركان الحرب ، سـليمان باشا ، الذى ألقى عليهـم أوامره وختمها بالعبارة :

" غدا نلتقى الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نحتسى القهوة ... "

وانتهى الهـزيع الأول من الليـل بدون أية حركة فى المعسكرين ، سـوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجد ونشاط فى إقامة استحكامات سريعة وقتية ، لستر مواجهتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

وحوالى منتصف الليـل ، انقطع بقيـة السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل التراشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولاذت الخيول بالفرار — وكان إبراهيم باشا يجول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد اتجـه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صـوب وميض مدفعية الترك ونشر نيران مدفعيته فى كافة الصفوف ، وبعد قليل خمدت مدفعية العدو .

وكانت خسائر هـذه الاغارة الليليـة طفيفة . ولمـا هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطتين من الالآى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهـم والبحث عنهم : فوجدوهم متجهين صـوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وادّعوا أنهم ضلوا الطريق ، فجلدوا وغيروا ضباطهم ...

(١٨) فى ٢٤ يونيو لمـا طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستلا من كوبرى كرسين :

أولا — ٣ خطوط من المشاة موازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثانى على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثانى مكون من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانيا — على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكورة .

ثالثا — على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعدة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

رابعا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامسا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لمسند الستة الآلايات الخيالة التى أمامهم عند اللزوم .

سادسا — الستة آلايات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .

سابعا — فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الاربع بطاريات التى وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامنا — لواء خيالة الحرس مؤلف من الآلايين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفى أثناء السير ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش . وفى بداءة المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، فى اتجاه بيره جك وبعد أن تقدمت القوة حوالى كيلومتر ، فى ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار . وبذلك صارت خطوط تقدم الجيش

المصرى موازية تقريبا لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى إلى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلها . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الايات خيالة خلف الربوة الثانية وآلايين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعا على النمط التالى :

تتألف قوة الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعا . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت المهدات...

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكمتين ، فطن حافظ باشا الى غلطته فى عدم احتلالهما من قبل ، ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ باطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان بالالتفاف الى اليسار كيما يكون جناح المصريين الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وأمدّ ميمنته بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى ١٤ المشاة — وكانت هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكلى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم نقل اليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب الى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .

وبدأت المدفعية المصرية بالضرب المبرح ، فردّت عليها المدفعية التركية ، واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين ؛ وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية ، بينما مدفعية الأتراك انصبت على صفوف المشاة المصريين ، فكانت الخسائر أقل ، وقد أسكتت البطارية التى وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدّة مدافع تركية .

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر ، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية ، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية فى التراجع ، وفرّ بعض الجنود ، وقد تزعزعت معنويتهم ، ولا سيما بعد حدوث انفجارين فى عربات جبخانة للجيش التركى ، بتأثير نيران المدفعية المصرية ، ثم تزايد الارتباك فى صفوف العدو بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأميرالاى جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية .

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك ، أمر قسما من الصف الأول لميمنته أن يتقدّم مسنودا من قسم الصف الثانى ، وأمر أيضا بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتتبعهم لتسندهم ، فاتجهت الجنود صوب خطوط العدو ، ولدى اقترابهم منها ، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مخفية ، فتقهقروا بدون انتظام ، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار ، ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا بما حصل للميمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها ، التى أخفت عنهم حرج الموقف ، وحدث أيضا ، فى ذات الوقت ، أن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة الى الخلف ، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السئ ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى ، وأن تفتح نيرانها بشدّة على الأعداء وعلى المنسحبين ،

ومما خفف بعض الأثر وصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوات المصرية الى شرق نزيب ، وكان قد صدر الأمر اليها للقيام بحركة التفاف واسعة حول الميسرة التركية لشد أزر قوات المشاة التى سبق ذكرها ، وشرعت فى تطويق ميسرة العدو والهجوم عليه ، وقد بدأ الهجوم اللواء الأول الخيالة (بقيادة رستم بك) فرده الأتراك ، وكاد ينتهى الموقف بمأساة ، لولا أن تداركه اللواء الثانى بقيادة الأميرالاى ابراهيم بك ابلجوخدار .

فى هذه الساعة الحرجة ، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره ، لولا وصول الذخيرة الى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك ، التى كادت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرة ، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعية المصرية الكبيرة العيار رفع معنوية قوات سليمان باشا بعد أن كاد أمل النجاح يتبدد ، واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هذه اللحظة وصل ابراهيم باشا على رأس آلايين من الخيالة الحرس ، جاءا تحت قيادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية ، وسار الى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١ و ١٣) فأكملا المعمعة . وهنا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما الى المعسكر التركى فاستوليا على القسم الأيسر منه ، مكتسحين شراذم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصل بها إبراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية مما أصابها من التفكك ، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، و بدأت كفة المعركة تميل إلى المصريين ، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال عم الجبهة بأسرها ، من الشمال إلى الجنوب ، وانتقل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاومه الفريق خالد باشا بكل شدة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة ، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل فر جنوده بعد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدوا واجبهم فى القتال .

ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتتابعة ، انسحب بقاياه إلى معسكره القديم، فاقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة، بينما اتخذ الثالث الاحتياطى للمشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة[1] .

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر، ليكتب رسالته إلى أبيه، وقد جاء فيها :

"أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا، التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزانة ، وأسرنا عددا عظيما من الجنود . وإنى أود أن أقتفى أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا — وكان تمزق الجيش العثمانى أشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معا . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته[2] وكانت نيران مدفعيتنا حامية جدا . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ما كنت عليه فى سن العشرين من النشاط والانشراح والقوة . وسنوافيكم بالتفصيل قريبا".

انتهى الأمر، وحلت الهزيمة بجيش السلطان، واستولى جند إبراهيم على نحو ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٥ مدفعا فى حصن بيره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسر منهم بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على آلاف الجنيهات وأوراقه وخططه ورساماته ... وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

---

(١) من تقرير سليمان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح ...

وأصبح إبراهيم باشا، بعد معركة نزيب: سيد الأناضول على الإطلاق، وصار الطريق قبالته مفتوحا إلى إستامبول .

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثمانى مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى

❖ ❖ ❖

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدوّ الحربية، فقرأ فى فقرتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغى أن يكون الغرض الثانى من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردّد فى مواصلة الزحف ، وكان فى مستهل أعماله أن استردّ عينتاب، وأعد العدّة لموالاة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها

إذا حكمنا بالنتائج ، ظهرت لنا معركة نزيب فى صورتها الختامية كأمجد صفحة فى تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرّخين فى مستوى معركة أوسترلتز التى قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمسوية . غير أننا إذا تطلعنا إلى سير المعركة ، وتطور أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة قد اكتنفتها من جانبى القيادة المصرية والتركية (١) .

(١) كان المارشال فيجان آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب فى كتابه المعروف عن حملات الجيش فى عهد محمد على وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التى تضمنها نقده مما كتبه موريه وكادلفين وبارو وفردنان بريه ياور سليمان باشا . وهذا القائد نفسه وقد رجعنا إليها فى نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير إبراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة فى الوقائع المصرية .

ولعل القارئ يذكر أنه فى ٣٠ يونيو تقدّم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدو ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثمانى أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التى ستنشب عليها المعركة . وليس هناك أدنى شك فى أن القيادة ارتكبت هـذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعـدو وكادت تقترف خطأ الهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخطة فى اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الالتفاف والسير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هـذا مخالف للقوانين الأولية لفن الحـرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قواته فى مزار ولكن قام كل الجيش بحركته التى وصفناها من غير أن يفكر فى حجز قوة كبيرة من جيشه كاحتياطى له إذا لم تنجح خطته التى اعتمد عليها فى تحطيم شوكة العدو نهائيا وكانت يقظة سليمان باشا وإشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، فى خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمديح .

ويا ليت هـذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هـذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطرة هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين وينتهى منهم ، فى ظلام الليـل البهيم ، ويعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقواته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهـذه جرأة تدهش أى قائد سـوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتى بالمعجزات ، ضاربا صـفح الحائط بقوانين الميـدان ، وأحيانا بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به ابراهيم ، البطل الجبار .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر ، فانه فى اليوم السـابق للمعركة ويوم المعـركة لم يؤمن على قواته . وكان يقذف بها كلها بدون حيطة أو حذر . ولولا أن السرعسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشىء من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى .

وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، وكادت تفقد العنان ، لولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التى صبت نيرانها الحامية فوق الأكمتين ، على ميسرة الترك

والقلب . وفى هـذه اللحظة أثبت السرعسكر أنه أضعف من خصـمه ابراهيم ولم يفعـل شيئا حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، و راحت من يديه فرصـتان : الأولى فى بدائة نزول القوات المصرية فى مزار، والأخرى فى أثناء تحركها الطويل الى هرجون .

وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما أمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطة الدفاع فى خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شيء من المجازفة لارتد بجيشـه إلى بيره وقضى على خطة ابراهيم المرتجلة — وكان جيش مصر لا يحمـل معه إلا مؤونة يومين ! . . ولكنها جرأة ابراهيم و بطولته أنقذتاه وقادتاه الى الظفر الحلو. وكان فى مكنة حافظ باشا الرجوع الى وراء الفرات والامتناع به كحاجز ومانع ضد عدوه بيد أنه لم يفعل شيئا من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادئ الحرب الخالدة، التى اكسبت كثيرا من القادة شهرة الذائعة فى التاريخ ! ؟

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التى تدور فى رأس أى قائد — هذه الخطة هى التى رأيناها قـد نفذها ، وهى ادارة صفوف الجنود من الغرب إلى الشرق ، وعمـل استحكامات خفيفة لم تغن شيئا قبالة الطوفان المصرى .

و يا ليته لم ينس وضـع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجـون لكى تقاوم الطلائع المصرية بعض الوقت ، ولكى يفيـد فى خلاله بعمل شيء هام — لم يفعل شيئا من هذا أيضا بيد أنه قنع بالركود فى مواقعه الجديدة وانتظار المكتوب فى القـدر ، عملا بمواعظ رجاله المولوية والبكتاشية حملة القماقم ولابسى الطراطير والقفاطين !

لنطالع ما ارتكبه ابراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدّسة لدى الجند ! — قبل ابراهيم المعركة متجها بقواته نحو الغرب والى ميسرته نهر كرسين والى خلفه الفرات الكبير . وفى هـذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يرد على هذا النقد معجب بابراهيم قائلا ومتى عرف ابراهيم القهقرى ؟ إن هـذه الكلمة لا وجود لهـا فى عبقريته الشامخة ولكننا — ونحن من المحافظين — نرى أنه ينبغى ألا يهمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث بيد أننا نحمد العاقبـة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سلبيا — ولولا هـذه السلبية مرة أخرى لمـا توج النصر هامة أبطال نزيب .

والراهن أن اعتماد إبراهـيم اعتمادا كليا على ميمنته جعل خطته هشة ، سريعـة الكسر، لو لم يك حافظ باشا قبالته . ولكنها المدفعية مرة أخرى هى التى انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات نزيب ، الذين نحيى ذكراهم ، ونحنى لهم رءوسـنا ، ولا ننسى معهـم نشاط سليمان وحنكته فى سرعة إدارة المعـركة وتوجيهها .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين . أما القلب والميسرة فكان نصيبهـا فى المعركة عادى للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا فى اللحظة الحرجة .

ولم يفـد حافظ باشا من أخطاء خصمه إبراهـيم ، ولو مرة واحدة ، حتى فى أسهل المواقف عندما ابتدأت ميسرة المصريين فى الفتح ومعاونة الميمنة — كانت أمام حافظ باشا فرصـة أضاعها بسلبيته وفقده روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنته القضاء على ميسرة المصريين . لكنه لم يفعل شيئا ولم يفكر فيما يعرف باصطلاح الهجوم المضاد، نظرا لأن المفاجأة والجرأة والمبادأة أيضا ، وهى من عناصر نجاح إبراهيم ، غلبته على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

ونلخص موقف حافظ باشا فى العبارة التى وصفه بها المارشال فيجان وهى :

"Il a maintenu son armée dans une immobilté passive, il a soumis ses Jeunes recrues a l'epreuve la plus rude que puissent supqorter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénovement etait fatal"

والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب فى السياسة الدولية ، فانها لا تعدّ ظفرا عسكريا فنيا لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل فى النجاح يعود — ولا مراء — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكأن المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت ، حينما أدّوا واجبهم فى سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة فى معركتى حمص وقونية .

وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . كلا ، فان أعمال إبراهيم فى ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء . والنقد فن ليس هناك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم فى ساحات القتال ففنّ لا يجيده إلا طراز فريد من الرجال ، بل أقرب إلى الرسل والقادة والمصلحين ، الذين تبخل بهم الدنيا وقلما يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا .

خاتمة النصر

فى مساء يوم نزيب ، يممت فلول الأتراك المحطمة الى مرعش ، وفرّ بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا فى طريقه الى روم كاله وبهينة ، لعله يجمع أشتات قواته فى مالطية .

وكان الجيش المصرى قد أنهكه القتال ، فسمح ابراهيم لجنده بالراحة يوما . وفى السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة و بطاريتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التى كان يحميها آلاى من

مشاة الترك ، فولى هؤلاء الأدبار مذعورين حينما اقترب منهـم المصريون ، وغنم الأخيرون ٣٥ مدفعا من العيار الكبـير . ولم يمكث ابراهيم كثيرا حتى سـلم قيادة القوة إلى القائمقام معجون بك ، قائد الهنادى ، وأمره بالاستيلاء على مستودعات التعيين والعتاد فى أورفة (شرق بيره جك) وارتد هو وبعض الخيالة الى نزيب .

وفى مساء السابع والعشرين ، قام ابراهيم على رأس أربعة آلايات مشاة وستة خيالة وست بطاريات فى تجاه مرعش ، التى مرت بها فلول العثمانيين ، وفى صباح ٢٨ دخل عينتاب . وحين أقبـل مساء ٢٩ عسكر فى ايجاسو يو ، شمـال غربى عينتاب ، وكانت خطة ابراهـيم فى القضاء على العثمانيين أن يتجـه سليمان باشا إلى مالطية وأورفة فى الشرق ، بينما يتجه هو بقوّاته من أدنة إلى قونية ، عن طريق مضيق طوروس .

وبينما يرتب ابراهيم خطته فى ايجاسو يو ، وصل كابتن كايبه ، رسول الحكومة الفرنسية . يحمل خطاب محمد على المؤرّخ فى ١٦ يونيو لابنه ، الذى يقول له فيـه ما معناه ، "إلزم مكانك ولا تتقدّم"

العودة إلى كابتن كايبه رسول فرنسا :

ذكرنا ضمن الحوادث الممهدة لمعركة نزيب وصول هـذا الضابط الى مصر ومقابلته لمحمد على ثم سفره على التو لملاقاة ابراهيم فى الميدان ، فوصـل الى معسكره بعد أن تصرّمت معركة نزيب .

وعقب أن رحب به ابراهيم ، قال الكابتن إنه قد سافر ليلا ونهارا لكى يكون أوّل مهنئيه ! ! ثم أمسك عن الحديث برهة ، الى أن قال :

"إننى أحمل اليك خطابا من أبيك" .

فسرّ ابراهيم حين أصغى الى هذا النبأ ، وفض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشدّ أسفه إذ تلا فيها أمرا من أبيه بوقف تقدّم الجنود . ومن ثم لم يتمـالك نفسه وصاح غاضبا :

"هذا محال، لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نزيب، إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هـذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها، وسأتحمل تبعة عصيانها".

لقد حزن إبراهيم . وحاول كاييه أن يجادله ليقنعه ... فراح يؤكد له معارضة أوروبا فى قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد على، وإلى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبى أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرّة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه ، إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .

وحاول هـذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم، ولكن عبثا جاهد، فقـد ضاعت خمس ساعات فى هـذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفى فجـر اليوم التالى، وقف كاييه على الأرض وأطلق للسانه العنان بينما كان يستعد إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطر آخر الأمر الى القول : "لست أريد أن أدعوك الى الخروج ولكننى أقول لك إنك اذا ظللت تتحدّث إلىّ عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى"

ويقول كرابيتس كاتب سيرة إبراهيم[1] — وهنا قدّر إبراهيم فأخطأ التقدير، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كاييـه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعتزم فى حديثـه هذه المرة أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئا عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك فى مكنة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة، لأن حبه لأبيه لم يك حبا عاديا . وإنمـا كان شغفا بل تيما بل دينا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قـد

(١) التـرجمة العربية ص ٢٤٨ — محمد بدران

لا يرضى عنها محمد على . وما كان هـذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبـوب يحث الأرض بحافره على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كاييسه الى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورفة . وهمـا نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم (1) . فعل ذلك إبراهيم وهو أسف جل الأسف على ما فعل ... فعله فى ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه .

وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوربية ، التى لا تبتغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

* * *

وكانت أهم مراكز الجيش العثمانى آنذاك فى قونية ومالطية : كان فى الأولى ٢٥,٠٠٠ جنـدى وحوالى ٤٠ مدفعا ، وكان فى الثانيـة حوالى ٢٠,٠٠٠ جندى و ٢٠ مدفعا .

أما موقف الجيش المصرى فى أول يوليو ، فكان كالآتى :

(١) فى أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٩,١٤,٢٦) بقيادة سليم باشـا ، وقد انفصل آلاى منها لحراسة بيره جك ، ولواء خيالة (الآلايان ٢ و ٨) و ٤ بطاريات مشاة وعرب الهنادى وكتيبة احتلت نزيب وأخرى فى روم كاله (قلعة) .

(٢) فى عينتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته — لواءان من المشاة (آلاى الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٣٤) وأربع بطاريات من الحرس ومثلها بطارية مشاة .

(٣) فى مرعش — قيادة ابراهيم باشـا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحـرس والآلاى ١١ الرماحين — ٤ بطاريات خيالة (آلاى مدفعية الحرس) .

---

(١) كادلفين و بارو — تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى .

ولحماية خطوط المواصلات فى إينجاسو يو — بين مرعش وعينتاب — قلم لواء المشاة (الآلاى ١١ و ١٢) ومعه بطاريتان بتلك المهمة ولحراسة ممر ألمـا داج .

(٤) وفى أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمـد المنكلى باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس فى تجاه أركلى وقونية — وكانت تتألف من :

لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ١٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلايات خيالة (رماحة الحـرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهنادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز نقلها فى مرعش — وكانت جبهة أورفا — ملطية ثانوية ، وللأتراك فى مالطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قـوات الجيش المصرى فى الشام ٣ آلايات مشـاة (الآلاى ١٨ فى بعلبك و ٢٥ فى دمشق و ٣٥ فى عكا) وآلاى خيالة (١٢ رماحين) فى بعلبك .

ولا يخفى أن هـذه الوحدات لم تك مرتباتها الحربية كاملة ، فقـد نقصت كثيرا . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش ابراهيم الرقم ٤٦٠٠٠

بينما كان يجرى هـذا فى الأناضول وقع حادث هام للغـاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا ، جميع سـفنه الى محمد على باشـا فى الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هـذا الأسطول يتألف من ٣٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هـذا يتبدّى أن السلطنة فقدت فى أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها ! فياله من موقف حزين عصيب .

* * *

كان يتعين ، بعـد إيقاف ابراهيم عن التقـدّم ، إقرار مصر فى حدودها التى استحوذ عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية و بلاد العرب وأدنة

وكريت . ولكن أوروبا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان في ثورتها على تركيا . وكان انتصار مصر فى معركة نزيب سببا فى تقلقل التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة، تبعا لأطماعها ونزعاتها، بل لقد جاهرت علنا انجلترة بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا و بينما رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلو الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وانجلترة والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت انجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وبروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معا فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وأهم شروطها تتلخص فى أنه إذا خضع محمد على " فى خلال عشرة أيام " ورد كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياته، وإلا أخضعته الدول بالقوة ، ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط ، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية .

وذهبت فى أثناء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها، وانتشرت الفتن فى الشام ولبنان، بفضل رجال المخابرات الانجليزية — فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمرا بالانسحاب من الشام .

أصدر إبراهيم أوامره الى جيشه فى التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء، وقد كان يؤلف من ٥٥,٠٠٠ جندى بصحبتهم ١٥٠ مدفعا، وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدا الحشد فى حلب، و بعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق، أعيد حكم السلطان .

وفى المزيريب (شرقى بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديدا . وقد قسم إبراهيم جيشه الى خمسة أقسام : أحدها بقيادة أحمد باشا الدره ملي والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلى، والرابع بقيادة سليمان الفرنساوى، والخامس بقيادته . وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن الى غزة والعريش، والثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها الى نخل والسويس، أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق فجعل وجهته غزة ليركب منها البحر الى مصر، وتمكن إبراهيم بحسن خطته، ودقة نظام جيشه، ونشاط ضباطه، من أن يلعب بقواد الحلفاء الذين كانوا يتربصون له فى الطريق، وأن يفلت من بين أيديهم، حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالما، أنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد، وقد تحمل جيش ابراهيم متاعب جد كبيرة لايحتملها جيش آخر لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة الماء والزاد، حتى اضطر الجنود الى التهام لحوم الخيل، وأن يعيشوا أياما على عشب برية، وكانوا قبل وصولهم الى السواحل فى غزة أو العقبة يكابدون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفى الخامس والعشرين من يناير، وصل القسم الأول من جيش ابراهيم الى غزة أما جيش سليمان فانه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون اليه من مصر، بطريق صحراء السويس، الزاد والماء، ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم الى غزة فى الحادى والثلاثين من يناير، وأرسل الى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بها إليه، ثم غادر آخر جندى غزة فى ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

ومن المحزن أن الجيش — فى خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين ألفا. وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر فى أربع معارك كبرى . ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الوسيع فى الحياة .

عاد الجيش الى وطنه — وكان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة — على رأسه قائد شاركه فى جل أطواره، لم تنقصه القريحة العسكرية . وكفى محمد على من ذكرى خالدة أنه استطاع فى اثنى عشر عاما فحسب أن يضع تحت إمرة ابنه جيشا مصريا مؤلفا من مائتى الف جندى فى دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين .

والراهن أن عمله كان شبيها بمعجزة من المعجزات !

ابراهيم القائد

الآن وقد انتهينا من كتابة هذه السطور ، نرى لزاما علينا أن نستوفى البحث فى عدة أسطر، عن إبراهيم القائد، تقديرا بل وفاء لهذا الجندى الباسل، الذى كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه، فى إقامة دولته العتيدة .

ولعلنا قد وقفنا على النجاح الذى أصابه ابراهيم فى جل المعارك ، التى حاربها ضد قادة جيوش الترك، واختمر فى رؤوسنا أنه قائد من طراز نادر . لقد أكمل مشروعات أبيه فى خلال حياته وليس كاسكندر الأكبر عقب انقضاء فيليب . وفضلا عن ذلك، فان سجايا الجندية الكاملة قد تأصلت فى ابراهيم كما رأينا .

كانت لابراهيم قدوة عجيبة على "فلوذة" جنوده — نعم يجعلهم كالفولاذ فى الصلابة والصمود قبالة أعدائهم، فلا يلينون له، أو يهزمون أمام إرادته . وقد كان لقوة تأثيره عليهم، وضرب به المثل لهم أكبر ضمان للظفر الذى كلل هاماتهم، فى كل معركة قاتلوا بشجاعة فيها . لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاق نفسه هو على عمله . يطيعه الجميع، ويخشونه أكثر من سواه، لأن فى يده العقاب، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجند . كنت تراه فى حروبه دائم اليقظة

كالصقر لا يغفـل عن الرقابة ، يدهش الأفراد بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به فى حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيرا ما ينام على الثلج فى العـراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حدب على جنوده يعطف عليهـم ويحادثهم ويشـجعهم ، ويصـغى الى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم . ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثنى — دواما — على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من بعض ضـباطهم الترك وبلغ من أمرهم أنهـم كانوا أحيانا يرفضون تنفيذ أوامرهم ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم .

ولمـا كان ابراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فانك تراه أحيانا إذا اسـتثير يمشى ذهابا وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب " الشبك " كأنه يهدئ بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى ابراهيم ، فى ميدان القتـال ، رابط الجأش لا يفارقه هـدوءه إذا دنت ساعة الخطر فى الميدان .

لم يسـلم خير القـادة وأعقلهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوروبيين أو الحاسدون . ونقول أن إبراهيم لم يك معصوما من الخطأ ، فان له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند فى الشرق .

وصـفوة القول أن الصفات التى تميز إبراهيم بهـا تجمع فى الشجاعة النادرة ، وفى القوة البدنية الهـائلة ، وفى النشاط الجم والحظ والتوفيـق ، وسط الأخطار المحدقة ، والحيـلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس فى أحرج الأوقات وأشـد الأخطار ، والقدرة الهـائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب فى بعض الأحايين الى نقائضها : فكان فى بعض الفترات جريئا مخاطرا فى البداية — وهو الذى عرف بشدة الحذر .

وكان قاسيا ولا سيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو ، وحين كان لا يخشى الرأى العام الأوروبى . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه ، لا يلق الى النصيحة أذنا صاغيـة ، ولا يحفل بآراء الآخرين ، اللهم إلا إذا وجد فى مأزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه فى بعض الأحيان يسرف فى الوعود إبان الأزمات التى كانت تمر به ، ثم ينسى هـذه الوعود بعـد ذلك ضاحكا من بساطة الذين خدعهم بها . وهكذا نرى إبراهيم يجمع بين طرفى النقيض . وكان من رجال المتناقضات ، والحـق أن سحنته كانت تشهد بالهـدوء والطيبة فى أوقات سروره ، بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدة والاستهانة بكل شىء . وكان أقل الأسباب كافيا لإحداث هذا التغيير فى سحنته من الطيبة الى الشدة وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حـوله — وكان صـوته قاصفا لا رنين له ويلوح فى بعض اللحظات كزئير الأسـد . ولم يك يستطيع أن يقرب منـه دون وجل إلا القليل من أقاربه ، وكان الكل يخضعون لنفـوذه . وكانت شخصيته وحدها خليقة ببعث هذا الاحترام . ولم يك الباعث عليه رتبتـه ونفوذه وحسب . وكان يعرف كيف يستغل الرجال فكان يداعبهم ويقربهم إليـه إذا اقتضى الأمر . وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى . وكان وجوده شديد التأثير فى قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يسـتغل فى القتال الموارد القليـلة الموجودة فى البلاد . وإذا كان فى بعض الظروف يلجأ إلى التخريب — كما حدث فى معارك المورة — فإن ذلك كان فى الضرورة القصوى — وكان إبراهيم فى ذلك الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تدله أى أداة إدارية ، ولم يك فيه أى فرع من فروع الإدارة الحكومية المنظمة ، استطاع إبراهيم أن يخلق كل شىء وأن يعمل كل شىء بنفسه . وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التى تمت فى عهد أبيه، وقد شهدنا كم من القادة الأتراك ولّاهم السلطان قيادة جيوشه، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز نادر .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة، بالرغم عن عدم تمسكه بقوانين القتال المدوّنة فى كتب عصره . بل قل كان يثور عليها ولا يتبعها، لأن فى طبيعته الشىء الكثير مما يضمن النصر، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر فى الأمر، ثم يعزم عليه، ثم يعمل، واضعا نصب عينيه مواطن الضعف من عدوّه، وبجيشه من تلك الناحية، فيوجه اليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواما — مقدرة خصمه، سواء أكانوا من سكان البوادى أو الأناضول أو أوربا أو بلاد الاغريق، ولذلك أحرز النجاح فى أشتات مشروعاته .

كان لايقدم على قتال عدوه إلا إذا أكمل حشد الجنود ووضع ترتيباته الادارية وشرح لهم خطته ثم ينزل عليه بضربته القاصمة، بينما يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها فى المعركة على أكمل وجه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر باصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعى مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد فى الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائما أن يكون فى طليعة جيشه ليشرف بنفسه على المعركة، وليرقب مواطن الضعف من عدوه، ويوجه إليها ضربته القاضية .

هذه هى صورة لقيادة إبراهيم الكبير، ولعلنا قد وفقنا فى وصف الجانب الهام منها فنكون قد أدينا بعض الواجب فى مناسبة مرور مائة عام على وفاته، رحم الله البطل، وطيب ثراه، وأسكنه فسيح جناته ...

المـــراجع

ليت كان الوقت متسعا للاستعانة فى كتابة هذا الموضوع — بالوثائق المودعة ضمن المحفوظات التاريخيــة فى قصر عابدين العامر — ولقــد كان معجم الأستاذ أســد رستم لوثائق الشام (٤ أجزاء) خير مساعد لنــا للوقوف على أهــم الوثائق التاريخية التى تتعلق بحروب الشام — فرجعنا لها مع اعداد الوقائع المصرية .

وكانت أمنيتنا أن ننشر فى ملاحق هــذا الموضوع صور أهم الوثائق ولا سيما التى تتصل بمنشورات الجيش وتقارير المعارك . . الخ ولكن المجال لم يكن فسيحا فانتفعنا بها فى متن الموضوع كما يتضح للقارئ .

وفيما يلى ثبت بأهم المراجع العربية التى أفدنا منها — ولأصحابها الشكر الجزيل :

(١) أسد رســـتم .
الأصول العربية لتــاريخ ســورية فى عهد محمد على باشا ٥ مجــلدات بيانات بوثائق الشـــام وما يساعد على فهم مقاصد محمد على باشا الكبير

(٢) أمين سامى باشا .

(٣) ادوار جوان وترجمة محمد مسعود .
مصر فى القرن التاسع عشر .

(٤) الفريق اسماعيل سرهنك .
حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء .

(٥) الخورى بوليس قرالى .
فتوحات ابراهيم باشا المصرى فى فلسطين ولبنان وسوريا .

(٦) داود بركات .
البطل الفاتح ابراهيم باشا .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى .
عجائب الآثار فى تراجم الأخبار .
(٨) يوز باشى عبد الرحمن زكى .
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .
(٩) عبد الرحمن الرافعى .
الحركة القومية ج ٢
(١٠) الأمير عمر طوسون .
صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على .
مقالات هامة فى مجلة الجيش المصرى .
خرائط ومصورات
(١١) كلوت بك وترجمة محمد مسعود .
لمحة عامة فى تاريخ مصر ج ١ و٢
(١٢) كرابيتس وترجمة محمد بدران .
إبراهيم باشا .
(١٣) كريم ثابت .
محمد على .
(١٤) ميخائيل مشاقة .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
(١٥) محمد رفعت .
تاريخ مصر السياسى فى الأزمة الحديثة .
(١٦) محمد قاسم وحسين حسنى .
تاريخ القرن التاسع عشر .
(١٧) محمد شفيق غربال .
محمد على — سلسلة أعلام الإسلام .

المراجع الافرنجية :

(1) **Cadalvene et Berrault :** Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.

(2) **Cadalvene et Berrault :** L'Egypte et la Turquie de 1829-1836 2 Vols.

(3) **Guemard, G. :** Les Reformes en Egypte 1760-1848.

(4) **Hamont, P. N. :** L'Egypte sous *Mohammed Ali*, 1845.

(5) **Mengin, F. :** Histoire de L'Egypte sous le Gouvernment de Mohammed Ali. 2 Vols. 1823.

(6) **Moltke, Helmuth Von :** Briefe uber Zustands und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.

(7) **Mouriez, P. :** Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 Vols.

(8) **Paton, A. A. :** A *History of the Egyptian Revolution*. 1863. 2 Vols.

(9) **Phillips, W. A. :** Mehmet Ali; "The Cambridge Modern History Vol. X, Chapter 17."

(10) **Planat, J. :** Histoire de la Régéneration de L'Egypte.

(11) **Puckler-Muskau, Prince :** *Egypt under Mohammed Ali*, 1845, 2 Vols.

(12) **Rustum A. J. :** The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830-1841).

(13) **Sabri, M. :** L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali.

(14) **Shafic Ghorbal :** The *Beginning of the Egyptian* Question and the Rise of *Mehemet Ali*, 1928.

(15) **St. John, J. A. :** Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 Vols.

(16) **De Vaulabelle, A. :** Histoire Moderne de l'Egypte, 1801-1834.

(17) **Vingtrinier, A. :** Soliman Pacha, Coll. Sèves., 1860.

(18) **Weygand :** Histoire Militarie de *Mohammed Ali et ses Fils*, 1936, 2 Vols.

⁂

كَمُلَ طبع "حملة الشام الأولى والثانية ١٨٣١ — ١٨٣٩"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ١٣٦٨
(٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٨) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٤٠/١٩٤٨/٥٠٠)